دولة البرين والبحرين

دكتور نظير حسان سعداوى

١ — التعريف بدولة البرين والبحرين سياسياً وقانونياً ودولياً .

٢ — العوامل المساعدة فى بناء الدولة .

٣ — التغييرات الجديدة التى أحدثتها هذه الدولة .

٤ — العوامل التى قوضت بناء هذه الدولة .

٥ — محاولات إحياء دولة البرين والبحرين .

— ١ —

من غير المعقول أن يخضع مواطنون أحرار فى بلد ما لسيطرة وحكم أرقاء وأغراب ، يستعبدونهم ، ويستذلونهم ، ويقررون مصيرهم قرابة خمسة قرون ! ! لكن هذا وقع فعلا فى مصر يوم أن تبوأ عرشها مماليك فرقتى البحرية والبرجية متكئين على عمد مسنَّدة من الشجاعة والنظام(١) مكنتهم من إقامة ملك عريض ودولة كبرى فى زاوية الشرق والجنوب من مثلث البحر المتوسط ، وهى الزاوية الأساسية فى هذا المثلث الحيوى ، ذات الموقع الفريد ، وذات القيم الحضارية والروحية والاقتصادية والاستراتيجية الضخمة المتراكمة ، وذات المواقع التاريخية العالمية الحاسمة . ويقع على ضلعى تلك الزاوية البلاد الشامية والديار المصرية . لذا يشاء المؤرخون المصريون فى العصور الوسطى أن ينعتوا تلك الدولة بنعت يدل على طبيعة موقعها فيطلقون عليها « دولة البرين والبحرين » البر المصرى والبر الشامى ، والبحر المتوسط والبحر الأحمر(٢) ، كما يستفاد من نقش أثرى على البيمارستان القلاوونى مؤرخ فى عام ٦٨٤ هـ ويحمل عدة ألقاب للسلطان سيف الدين قلاوون منها « ملك البرين والبحرين ، وصاحب القبلتين ،

(١) Gibbon E. : *The Decline and Fall of the Roman Empire*, V. 3, p. 501.

(٢) محمد شفيق غربال : العوامل التاريخية فى بناء الأمة العربية طبعة ١٩٦١ ص ٧٤ .

وخادم الحرمين الشريفين » (١). وكما يرد من نعوت تربو على المائة فى رسالة للسلطان عبد الله محمد بن أبى الحجاج يوسف بن نصر بن الأحمر صاحب غرناطة ببلاد الأندلس بعثها للملك الأشرف شعبان بن حسين سلطان مصر والشــام فى عام ٧٦٧ هـ . (١٣٦٥م) منها « ملك البرين والبحرين ، مقيم رسوم الحرمين الشريفين » (٢) . وقد يكتفى بلقب « سلطان الديار المصرية والبلاد الشامية » (٣) .

ومهما كانت نعوت سلاطين دولة البرين والبحرين ، فان المتتبع لحدودها السياسية مبتدئاً بالإقليم المصرى حسبما تصفها كتب المعاصرين يلحظ أن حده الشمالى يبدأ من رفح إلى العريش ، ممتداً على الجفار(٤) إلى الفرما . ثم بساحل بحر الروم ماراً بالطينة ودمياط ورشيد والإسكندرية وبرقه ، آخذاً على الليونة إلى العميدين إلى العقبة ، وهى آخر حدود مصر ، ثم يعطف الحد جنوباً إلى ظهر الواحات مقتبلا على الصعيد إلى حدود النوبة ، مشرقاً إلى أسوان ، وينتهى حد مصر القبلى من ضفة القلزم حيث عيذاب على بلاد الحدارية إلى الروم من بلاد النوبة خلف الجنادل التى على مصب النيل إلى جبال المعدن إلى صحراء الحبشة ويبدأ الحد الشرقى من بحر القلزم قبالة أسوان إلى عيذاب إلى القصير إلى القلزم ، ثم يتسع مشرقاً إلى تبة بنى إسرائيل . ثم يعطف شمالا إلى بحر الروم عند رفح . وغالب ما بين بحر القلزم وبين مجرى النيل منقطع رمال ومحاجر وجبال ، ويسمى ما ساحل البحر فى هذا الحد بر العجم(٥) وقسمت ديار مصر إدارياً إلى قسمين كبيرين . الوجه القبلى والوجه البحرى ، ويحتوى أولها على ستة عشر إقليماً إدارياً ، وثانيهما على إثنى عشر إقليماً ، وعلى عهد السلطان

---

(١) Wiet G. : *Répertoire chronologique d'épigraphie arabe,* t. 13, p. 36.

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى : حـ ٧ ص ١٠٨ و ١١٣ .

(٣) ابن أبى الفضائل : النهج السديد ج ٣ ص ١٠١ .

(٤) سمى الجفار لأن الدواب تجغرفية أى تهلك من السير لبعد مراحله ومشقة السير فيه فتهلك ، فاشتق الجفار كما قيل العقال والخطام والحجاز . وكانت الجفار فى أيام فرعون معمورة بالقرى والمياه وفيها قال الله تعالى : ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ، ولذلك سمى العريش عريشاً . راجع أبى الفدا . كتاب تقويم البلدان طبعة ١٨١٥ ، ص ١٥٩ .

(٥) أبو الفدا : شرحه ص ١٠٣ — شهاب الدين بن العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف طبعة ١٣١٢ هـ ، ص ١٧٣ .

الأشرف شعبان انسلخ إقليم الإسكندرية من البحيرة ٧٦٧ هـ ، وتحولت الإسكندرية إلى نيابة إداريا ، لها نائبها ودواوينها وذلك لأهميتها الاستراتيجية والتجارية(١).

أما حدود بلاد الشام السياسية ، فتبدأ الغربية منها طرسوس التى ببلاد الأرمن مساحلة بحر الروم إلى رفح التى فى أول الجفار بين مصر والشام ، وتمتد الحدود الجنوبية من رفح إلى حدود تبة بنى إسرائيل إلى ما بين الشوبك وأيله من البلقاء . ويحيط بالشام من الشرق حد يمتد من البلقاء إلى مشاريق صرخد آخذاً على أطراف الغوطة إلى سلميه ، إلى مشاريق حلب إلى بالس ، ويبدأ الحد الشمالى من بالس مع الفرات إلى قلعة نجم إلى البيرة إلى قلعة الروم إلى سميساط إلى حصن منصور إلى بهسنى إلى مرعش إلى بلاد سيس إلى طرسوس إلى بحر الروم(٢). وقسمت بلاد الشام إدارياً إلى ست أقاليم كبرى تعرف باسم النيابات هى : دمشق وحلب وطرابلس وحماه وصفد والكرك ، ثم أضيفت إليها مؤخراً نيابتا غزة وملطية وكانت نيابة حلب حتى عصر الناصر محمد بن قلاوون أكبر النيابات الشامية ، فاستبدلها بنيابة دمشق ، وجعل نائب دمشق أوسع النواب نفوذاً ، ولقبه بنائب السلطنة فى البلاد الشامية ، وساواه فى الرتبة بنائب السلطنة فى الديار المصرية . فإذا قال السلطان « بلاد الشام ونائب الشام لا يريد به إلا دمشق ونائبها » على قول صاحب التعريف (٣).

ومما يستوجب الالتفات فى حدود دولة البرين والبحرين السياسية أن يثير العالم الأثرى فيت الشكوك فيما ادعاه السلطان سيف الدين قلاوون فى معاهدة له مع أمير صور الصليبى من أن الحجاز واليمن تقعان داخل نطاق دولته . غير أن هذه الشكوك يبددها نص تاريخى أثرى عثر عليه العالم المذكور فى القاهرة ، يرجع تاريخه إلى عام ٦٨٧ هـ . ويلقب فيه قلاوون بعدة ألقاب منها « سلطان الشام واليمن ، ملك البحرين ، خادم الحرمين الشريفين ، صاحب القبلتين ، ملك الديار المصرية والجهات

---

(١) القلقشندى : جـ ١١ ص ٤٠٥ — على ابراهيم: دراسات فى تاريخ المماليك البحرية ص ٣٤ .

(٢) تعرف بلاد سيس ببلاد الروم أو الأرمن . وقد أدخلها أبو الفدا فى تقويمه (ص ٢٢٦) فى حدود الشام ، بينما أخرجها العمرى فى تعريفه (ص ١٧٦) وهو التحقيق على قول القلقشندى (جـ ١٤ ص ٦٥) .

(٣) العمرى ص ١٧٦ .

الحجازية ، والبلاد الشامية ، والأعمال الفراتية ، والديار بكرية »[١].

والمعروف تاريخياً أن الظاهر بيبرس أحيا الخلافة العباسية بمصر ليجعل سلطته شرعية ، ويكسب بلاطه تفوقاً فى نظر بقية الأقطار الإسلامية ، ويقمع فتن العلويين بمصر[٢]. وكان طبيعياً أن يكافئه الخليفة العباسى فيقلده « الديار المصرية والبلاد الشامية ، والديار بكرية ، والحجازية ، واليمنية ، والفراتية ، وما يتجدد من الفتوحات غوراً ونجداً ... » [٣] وترتب على هـذا التفويض الخليفى أن قاد السلطان بيبرس حملة مصرية مملوكية إلى الحجاز ، قاتلت التتار وطردتهم ، وحاربت حليفهم صاحب مكة وقتذاك وهو أبو نمى بن أبى سعيد وعمه إدريس بن على شريكه . ودخل بيبرس أم القرى ، وكسا البيت الحرام . وأعاد الحج إليه بعد انقطاعه إثنى عشرة سنة بسبب فتن التتار[٤] ورتب بيبرس أمور المحمل على أسس منظمة دائمة ، وفرض الرسوم على أميرى مكة والمدنية[٥]. ومن ثم غدا صاحب مملـكة البرين والبحرين « يمتاز على ملوك الأرض من المسلمين وغيرهم بالـكعبة المعظمة ، داخـلة فى نطاق مملـكته ، واختصاصه بكسوتها ودوران المحمل فى كل سنة » . بعد أن كان خلفاء بنى العباس يجهزونها من بغداد ، واستقرت القاعدة على ذلك إلى عصر القلقشندى[٦]. على أن هذا لا يفيد استقرار الأحوال فى الحجاز لسلاطين المماليك بصفة دائمة بدليل قول المقريزى تحت أحداث عام ٦٧١ هـ . « وفى شعبان حلف الشريف أبو نمى أمير مكة للسلطان وولده بالطاعة لهم ، وأنه التزم تعليق الـكسوة الواصلة من مصر على الـكعبة فى كل موسم ، وأنه لا يعلق عليها كسوة غيرها ، وأن يقدم علم الملك المنصور على كل علم فى كل موسم ، وألا يتقدمه علم غيره » إلى أن يقول « وأن يستمر بإفراد الخطبة والسكة بالإسم الشريف المنصورى . وأن يفعل فى الخدمة فعل المخلص الولى للسلطان ، ويلتزم مراسمه امتثال النائب للمستنيب » .

---

(١) Wiet : *op cit.*, t. 13, p. 65.

(٢) فليب حتى : تاريخ العرب المطول : ج ٣ ص ٧٩٩ .

(٣) المقريزى : السلوك : ج ١ قسم ٢ ص ٤٥٤ . أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ١١٣

(٤) الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار : ج ١ ص ١٤٦ .

(٥) السلوك ج ١ قسم ٣ ص ٧٠٦ . ابن كثير : البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٢٩ .

(٦) صبح الأعشى : ج ٤ ص ٥٧ .

ويتفق هذا القول مع ما جاء فى التعريف للعمرى « وبهذا تم ذكر النطاق بمصر والشامات وما معها من جميع الممالك الإسلامية إلا الحجاز ، وهو قطعة من جزيرة العرب ، وليس أمره بمضبوط ، ولا بحفظ الثقة منوط »[١]. ولكن يبدو من المكاتبات الصادرة من الأبواب السلطانية بالديار المصرية إلى أرباب الوظائف القضائية والإدارية بالمملكة الحجازية أن الأمن استتب هناك والأمر استقر لمصر منذ عصر الناصر محمد وما بعده[٢].

أما بلاد اليمن التى يدعى السلطان قلاوون أنها جزء من الولايات الإسلامية الداخلة فى نظام دولته ، فكان يحكمها بنو رسول حكما مستقلا ، ويلقب صاحبها « سلطان الإسلام والمسلمين وقاهر الخوارج المتمردين ... سيد الملوك والسلاطين إلخ »[٣].

ورفض الإذعان والخضوع لسلاطين مصر ، بل سولت له نفسه أن ينتزع مكة من السيطرة المصرية ١٢٨٤م (٦٨٣ هـ). لكن حملة مصرية أدبته وصدته ، فصار بعدها « يدارى صاحب مصر ويهاديه لمكان إمكان تسلطه عليه فى البر والبحر الحجازى ، ولذلك اكتتب الملك المؤيد داود وصية ، أوصى فيها الملك الناصر محمد صاحب الديار المصرية على ابنه المجاهد » فسير الناصر محمد سنة ٧٢٥هـ حملة مصرية برية إلى اليمن لتمكين الملك المجاهد هذا من الجلوس على عرشه. ودخلت الحملة المصرية زبيد وتعزة وفرح اليمنيون بقدوم العسكر المصرى فرحاً شديداً ، وبايعوا ملكهم المجاهد . وعادت الحملة إلى مصر مارة بمكة . لكن قائدها زج به فى السجن مقيداً ، لأنه قصر فى أخذ مملكة اليمن ، على القول المراجع[٤] .

ومن ثم ظل ملوك اليمن يعترفون بالولاء والخضوع لسلاطين دولة البرين والبحرين ، ويرسلون سفاراتهم تحمل الهدايا النادرة من طرائف بلادهم من العود

---

(١) العمرى : التعريف ص ١٨٠

(٢) راجع القلقشندى : ج ١٢ ص ٢٣٢

(٣) Wiet G. : *Répertoire...*, t. 13, p. 134.

(٤) القلقشندى : ج ٥ ص ٣٧ — المقريزى : السلوك : ج ٢ قسم ١ ص٢٥٩-٢٦٨

والعنبر والصينى ورماح القنا ، فضلا عن التحف والفيلة والحيوانات والطيور[١] . وتدل صيغ المكاتبات الصادرة من سلاطين القاهرة إلى ملوك بنى رسول باليمن على أن الأخيرين كانوا غالباً فى المرتبة الثالثة من ملوك الدول الإسلامية[٢] .

وكيفا تكن إدعاءات قلاوون ، فإنها — بلا جدال — تفصح عن الأطماع التوسعية الكبيرة لسلاطين البيت القلاوونى ، وعن آمالهم السياسية التى تهدف إلى خلق وحدة عربية إسلامية قاعدتها القاهرة حسبما تدل وثائق عصرهم ، ومنها ما يشيد إلى إسرافهم فى الألقاب العديدة التى يتصف بها الواحد منهم « سلطان العرب والعجم سيد الملوك والسلاطين .. سلطان الأرض ذات الطول والعرض . . ملك البسيطة .. سلطان العراقين والمصرين ... ملك البرين والبحرين ... سيد ملوك العرب والعجم والترك والديلم »[٣] . ومن تلك الوثائق كتاب الأشرف خليل بن قلاوون إلى كختو ملك مغول فارس سنة ١٢٩٣ م يطلب مفاوضته فى أمر تسليم بغداد لتكون مقراً له كما كانت للعباسيين من قبل ، ولو طال عمر خليل «لكان يفتح غالباً بلاد العراق» على قول ابن إياس[٤] . ومنها أخيراً كتاب الناصر محمد بن قلاوون إلى الملك غازان محمود يطلب منه الجلاء عن العراق فى لهجة شديدة نصها « وإن سولت لك نفسك خلاف ذلك فأنت لا محالة هالك . وعن قريب يخلو منك العراق والعجم ويبدل وجودك بالعدم ، فاختر لنفسك إما الدخول إلى خراسان سريعاً ، وإما الخروج عن الروم والعراق جميعاً »[٥] ألم يفسر ذلك كله سعة أحلام وأطماع بيت قلاوون ، وما بلغته دولة البرين والبحرين فى عهد هذا البيت من سعة الإنتشار وقوة التأثير . وحسبك أن تعرف أنه وصل إلى بلاط الناصر محمد ثمانية رسل فى عام واحد (١٣١٦م) تقدم له فروض الولاء والطاعة وتتودد إليه ، وأنه أجرى لأحد سلاطين شمال إفريقية المخلوعين مائة درهم فى كل يوم قضاه فى ضيافة القاهرة . ثم جهز له حملة حربية مصرية سارت به إلى بلاده ، ومكنته من العودة إلى عرشه . وحسبك أن تعرف أيضاً أن

---

(١) السلوك : جـ ١ قسم ٣ ص ٧٠٢ .

(٢) السلوك : جـ ١ قسم ٢ ص ٥٦٤ حاشية ١ — القلقشندى : جـ ٧ ص ٣٣٢ .

(٣) Wiet G. : *Répertoire...*, t. 11, pp. 9, 15, 36.

(٤) بدائع الزهور : جـ١ ص ١٢٧ .

(٥) النهج السديد : جـ٣ ص ٧٤ — جمال سرور : دولة بنى قلاوون ص ٢٠١ .

السلطان برقوق عظم أمره ، حتى خطب باسمه فى أماكن لم يخطب فيها لأحد قبله ، فخطب باسمه فى توريز من بلاد العجم ، وفى الموصل وفى ماردين وفى سنجار وضربت السكة باسمه فى جميع هذه البقاع(١).

واتخذ سلاطين القاهرة من ولاء وإخلاص عرب البحرين لهم درعاً لحماية تجارة الشرق الأقصى والهند المارة بالخليج العربى من تهديد مغول فارس لها وتسللهم عبر الخليج إلى الوطن العربى . ويصف مؤرخ معاصر عرب البحرين بأنهم «قوم يصلون إلى باب السلطان وصول التجارة ، يجلبون جياد الخيل وكرام المهارى واللؤلؤ وأمتعة العراق والهند ، ويرجعون بأنواع الحباء والإنعام والقماش والسكر وغير ذلك . وواصلهم إلى الهند لا ينقطع » واعترضوا مرة حاج العراق — نكاية فى أبى سعيد ملك فارس — فأخطرهم الحاج أنهم جاءوا بأوامر الناصر محمد صاحب مصر ، فقال عرب البحرين « لأجل الملك الناصر نخفركم بغير شىء ، وسمح لهم بمواصلة السير إلى الحجاز »(٣) . وعلم الناصر بأمرهم فأنعم عليهم بالعطايا الجزيلة ، وشكرهم على إخلاصهم ووفائهم لوطنهم وقوميتهم . هكذا اعتمدت دولة البرين والبحرين فى تأكيد هيمنتها على الشاطىء الأسيوى من البحر الأحمر على الأسلوب الحربى والسياسى . أما الشاطىء الأفريقى منه فكان يوجد فى أقصى الجنوب ملوك الحبشة الحريصين على توطيد صلاتهم بسلاطين القاهرة لعدة اعتبارات منها ، وجود سبعة ممالك إسلامية فى بلادهم ، ومنها اعتمادهم على الكنيسة المصرية فى تعيين مطران قبطى لكنيسة الحبشه فضلا عن التماسهم تيسير سبل الأمن والراحة لحاج الأحباش القاصدين بيت القدس . لذا جرت عادة متملك الحبشة أن يخاطب سلطان القاهرة بعبارة « أقل المماليك يقبل الأرض وينهى » . كما جرت عادة سلاطين القاهرة على تحصيل الزكاة من جهات سواكن وجزائرها ، ومكاتبة صاحبها بأن « يوفق بين عرب جهينه ورفاعه ، ولا يعين طائفة على أخرى خوفاً على فساد الطريق »(٤) .

---

(١) سعداوى : نظير حسان : صور ومظالم من عصر المماليك ص ٦٥ .

(٢) العمرى : التعريف ص ٨٠ - القلقشندى جـ ٧ ص ٣٧٠ .

(٣) المقريزى : السلوك ، جـ ١ قسم ٢ ص ٢١١ — سرور ص ٢٠٨ .

(٤) السلوك جـ ١ قسم ٢ ص ٥٥٨ وجـ ١ قسم ٣ ص ٧٠٠ .

وانتزع سلاطين دولة البرين والبحرين اعتراف معاصريهم من ملوك أوروبا المسيحية بحدودها السياسية ، وكل ما هو داخل فيها من سائر الأقاليم الرومية والعراقية والشرقية والشامية والحلبية والفراتية واليمنية والحجازية والديار المصرية والمغرب ؛ وآية ذلك نصوص المعاهدات السياسية والاقتصادية ، ومنها تلك التى عقدها سيف الدين قلاوون مع ملك أسبانيا ألفونس وأخوه جيمس ملك صقلية والتابعين لهما من الأمراء المسيحيين عام ١٢٨٩ م (٦٨٩ هـ) . وجددها معهم ولده الأشرف خليل ، وجاء فيها حد هذه البلاد والأقاليم وموانيها وسواحلها من البر الشامى من القسطنطينية والبلاد الرومية الساحلية ، وهى : من طرابلس الغرب ، وسواحل برقة والاسكندرية دمياط والطينة وقطيا وغزة وعسقلان ويافا وأرسوف وقيسارية وعثليث وحيفا وعكا وصور وصيدا وبيروت وجبيل والبيرون وأنفة طرابلس الشام وأنطرسوس ومرقيه والمرقب وساحل المرقب: بانياس وغيرها. وجبلة واللاذقية والسويدية، وجميع الموانى والبرور إلى ثغر ودمياط وبحيرة تنيس . وحدها من البر الغربى : من تونس وإقليم إفريقية وبلادها وموانيها إلى ثغر الاسكندرية ورشيد وبحيرة تنيس وسواحلها وبلادها وموانيها(١) .

— ٢ —

بعد ذلك التعريف السياسى والإدارى والشرعى والدولى بدولة البرين والبحرين يتساءل المرء عن العوامل الأساسية التى أسهمت فى بناء تلك الدولة على هذا النحو من الاتساع والمهابة .؟ . . وتفرض معركة عين جالوت فى رمضان ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) نفسها على رأس تلك العوامل ، لا لأنها أنقذت الحضارة الإسلامية ، فقد تحضر التتار بها بعد استقرارهم فى فارس ، بل لأنها أنقذت الشام ومصر من الخراب الذى حل بالعراق وأهله ، وحفظت لهما موضعهما من العروبة ، وأدت إلى تصفية أمر التفرقة السائدة فى الشام والجزيرة ، فانتهى بها ما كان من أيام الأيوبيين ، وما كان باقياً من ملك الصليبيين . وقامت بتلك المعركة الوحدة المصرية السورية ، وابتدأ فصل رائع من فصول ازدهار الحضارة العربية(٢) .

---

(١) القلقشندى ، ج ١٤ ص ٤٦ . سعداوى : الحرب والسلام ص ١٤٧ .

(٢) غربال : من زاوية القاهرة ص ٨٢ و ٨٥ .
Runciman : *A History of the Crusades*, V. 3, pp. 311, 313.

على أن بطولة المماليك التى تجلت فى عين جالوت مرت فى ثلاثة أدوار : الدور الأول كانت بطولة جمع الكلمة مع تقليد الحكم والزعامة للرجل الذى يستطيع مواجهة الشر والخطر ، ذلك قطز حفيد أخت أحد شاهات خوارزم ، قبض عليه التتر ، وباعوه فى دمشق حيث اشتراه أيبك[١]. ينكر قطز على الملك المنصور على بن أيبك لهوه ولعبه ، ويقول لزملائه الأمراء « فى مثل هذا الوقت الصعب لا بد أن يقوم بأمر الملك رجل شهم يطيعه كل أحد ، وينتصب للجهاد فى التتار » فأجابه الجميع « ليس لها غيرك »[٢]. وفى الدور الثانى كانت بطولة قرار الخروج لمواجهة البرابرة الزاحفين وعدم انتظارهم فى أرض الوطن ، وكان قطز كذلك هو صاحب الفضل فى اتخاذ هذا القرار ، إذ قال للأمراء « ينبغى أن نختار مع هذه الجماعة التى تريد بلادنا واحداً من ثلاثة : الصلح أو القتال أو الجلاء عن الوطن[٣]. وفى الدور الثالث كانت بطولة القتال وإدارة المعركة ، وأن الفخر للجميع ولكن الفخر الأكبر لقطز نفسه ، فهو الذى يشجعهم ، ويحسن إليهم الموت ، وهو يكر بهم كرة بعد كرة حتى قتل جواده فى المعركة فترجل وبقى واقفاً على الأرض ثابتاً ، والقتال عمال فى المعركة ، وهو فى موضع السلطان من القلب حتى جاءته الوشاقية بالخيل فركب ومال على العدو بكل ثقله حتى نصر الله الإسلام وأعزه على قول أبى المحاسن[٤] ، الخبير العالم بالأمور العجيبة التى اتفقت عامئذ (٦٥٨ هـ) بسبب تغير الدول ومتولى الحكم بالشام . فكان أول السنة إلى نصف صفر فى مملكة الناصر يوسف بن أيوب ، ثم صار فى مملكة هولاكو ملك التتار إلى الخامس والعشرين من رمضان ، ثم صار فى مملكة المظفر قطز صاحب الديار المصرية إلى أن قتل فى ذى القعدة ثم صار فى سلطنة الملك الظاهر بيبرس ، وقد شركه فى دمشق الملك المجاهد سنجر[٥]. ولئن قطف الظاهر بيبرس البندقدارى ثمار معركة عين جالوت ، وتسلطن على عرش المملكة ، إلا أنه تشبه — فى جهاده — بصلاح الدين الأيوبى . وصعّد فلول التتار إلى ما وراء الفرات ، وأعلن قيام

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٤٠ حتى ج ٣ ص ٧٩٧ .
(٢) السلوك : ج ١ قسم ٢ ص ٤١٧ — النجوم ص ٥٥ .
(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ ج ١ قسم ٢ ص ٣١٢ .
(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٢٥ — النجوم ج ٧ ص ٧٩ .
(٥) ابن كثير : ج ٣ ص ٢٢٣ — أبو شامة : ذيل الروضتين ص ٣١١ .

الوحدة المصرية السورية ، وعزم على ضم العراق إليها بأن جهز الخليفة العباسى أبا القاسم أحمد الملقب بالزراتيق بعسكره إلى جهة بغداد طمعاً فى أن يستولى عليها ويجتمع عليه الناس[١]. وسرعان ماعلا شأن بيبرس ، وأرسل فى استخراج الزكاة من سائر الجهات ، وأسلم على يديه « عالم كبير من التتار الواصلين ، ومن الفرنج المستأمنين والأسرى ، ومن النوبة القادمين من عند ملكها »[٢].

وكيفما كانت أهمية عين جالوت فى بناء دولة البرين والبحرين فان اختيار حاضرتها يأتى فى المرتبة الثانية . أتكون العاصمة فى البر الشامى تمشياً مع الواقع والمنطق على ضوء غارات المشارقة ومؤامرات الغزاه ودسائس الانفصاليين ، أم تكون العاصمة بالبر المصرى حيث تربى المماليك وشبوا على الإفتتان بمصر ، وكما جرت السوابق التاريخية المشتبهة فى الأحوال والمناسبات وأقربها إلى علم أمراء البحرية ماقضت به المعارك على عهد أسيادهم الأيوبيين . لذا قرروا العودة إلى مصر « أطيب الأرضين وعجمها أكرم العجم أنساباً » . على قول الحديث النبوى الشريف . ومصر فى تقدير المقريزى تمثل صدر الطائر ورأسه ، على حين يمثل أحد جناحيه المشرق الإسلامى ، ويمثل الآخر المغرب[٣] . تمتازمصر بموقع جغرافى فريد ، وأرض خصبة ، غنية فى مواردها ، وغلتها ، وشعبها يستجيب للنظام والطاعة ، ويستكين — فطرياً — للعرف والقانون ، لا يستقيم أمره إلا بالوحدة والنظام ، يقول الشاعر فى مصر وأهلها : سقياً لمصر وماحوت من أنسها وأناسها[٤].

ومهما يكن شيوع الخلاف قديماً وحديثاً فى المفاضلة بين دمشق والقاهرة ، فسرعان ما غدت القاهرة على زمن صاحب التعريف « أم الممالك وحاضرة البلاد ، ودار الخلافة ، وكرسى الملك ، ومنبع العلماء ، ومحط الرحال ، وتبعها كل شرق وغرب وبعد وقرب ، خلا الهند »[٥] . . ويصدق عليها قول أحد مشايخ العلم فى

---

(١) أبو الفدا : المختصر ج ٣ ص ٢٠٥ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٧٩ .

(٣) اتعاظ الحنفا ص ٩٩ .

(٤) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ٢١ و٤٩ .

(٥) العمرى : التعريف ص ١٧٢ .

المغرب العربي آنذاك : «من لم يرها لم يعرف عز الإسلام»[١] . ويصفها أبو القاسم البرجى بعد أن أسفره إليها سلطان المغرب فى مهمة سياسية بقوله « إن الذى يتخيله الإنسان فإن ما يراه دون الصورة التى يتخيلها لاتساع الخيال على كل محسوس إلا القاهرة فانها أوسع فى كل ما يتخيل فيها » . فأعجب السلطان والحاضرون بذلك الوصف[٢] . ولم لا يكون الإعجاب وفى القاهرة الجامع الأزهر ، يفد إليه طلبة العلم والفقراء ، يلازمون الإقامة فيها ، ويشتغلون بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه ، وما يتصل به من فقه وحديث وتفسير ونحو . وتعقد به مجالس الوعظ وحلقات الذكر ، فيجد الزائر له « من الأنس بالله والارتياح ونزوح النفس ما لا يجده فى غيره » على قول المقريزى[٣] .

وما أبلغ قول ابن خلدون فى القاهرة يوم الفاتح من ذى القعدة سنة ٧٨٤ هـ حين انتقل من الإسكندرية إليها « فرأيت حاضرة الدنيا وبستان العالم ، ومحشر الامم ، ومدرج الدرر من البشر وإيوان الإسلام . وكرسى الملك . تلوح القصور والدواوين فى جوه ، وتزهر الخوانق والمدارس والكواكب بآفاقه ، وتضيء البدور والكواكب من علمائه . . ومررت فى سكك المدينة تغص بزحام المارة ، وأسواقها تزخر بالنعم . وما زلنا نحدث عن هذا البلد ، وبعد مداه فى العمران واتساع الأحوال ، ولقد اختلفت عبارات من لقيناه من شيوخنا وأصحابنا حاجهم وتاجرهم بالحديث عنه . . »[٤] .

ويصف الزعيم المغولى هولاكو القاهرة فى إحدى رسائله أنها « كروان سراى » أى محط الرحال والمتاجر والمال وفندق المسافرين ، وربما نشأت تلك التسمية من انتهاء معظم الطرق التجارية إليها فى سائر جهات الشرق والغرب فى القرون الوسطى[٥] . ويبرز هذا الوصف على أية حال أهمية القاهرة كسوق عالمى ، يزخر

(١) ابن خلدون : المبتدا والخبر جـ ٧ ص ٤٥٢ .

(٢) المقرى : نفح الطيب جـ ٣ ص ١٣٤ .

(٣) الخطط : جـ ٢ ص ٢٧٦ .

(٤) المقرى : نفح الطيب جـ ٣ ص ١٣٣ .

(٥) السلوك : جـ ١ قسم ١ ص ٤١٦ وجـ ١ قسم ٢ ص ٤٢٦ حاشيه ٣ للدكتور زيادة .

بمتاجر الشرق وبخاصة بعد أن امتد نفوذ المغول إلى الخليج العربى وتحويل التجارة الهندية منه إلى الطريق البرى عبر أفغانستان وفارس(١) . ويحتوى سوق القاهرة على القيساريات والفنادق والوكالات والخانات والبنوك وكل ما يثير إعجاب الزائر من أصناف البضائع ، وازدحام الناس ، وشدة أصوات العتالين عند حمل البضائع ونقلها لمن يبتاعها . يصف المقريزى فندق بلال بقوله « ما برح يودع فيه التجار وأرباب الأموال صناديق المال . ولقد كنت أدخل فيه ، فاذا بدائرة صناديق مصطفة ما بين صغير وكبير ، لا يفصل عنها فى الفندق غير مساحة صغيرة بوسطه . وتشتمل هذه الصناديق من الذهب والفضة على ما يجل وصفه ... وعلى باب سوق السلاح فى الجانبين حوانيت تجلس فيها الصيارف طول النهار » . ويمضى المقريزى فى وصف نبضات الحياه وحركة السوق فى القاهرة فيقول : وسمعت الكافة ممن أدركت يفاخرون بمصر سائر البلاد ، ويقولون يرمى بمصر فى كل يوم ألف دينار ذهباً على الكيمان والمزابل . يعنون بذلك ما يستعمله اللبانون والجبانون والطباخون من الشقاف الحمر التى يوضع فيها اللبن ، والتى يوضع فيها الجبن ، والتى تأكل فيها الفقراء الطعام بحوانيت الطباخين ، وما يستعمله بياعو الجبن من الخيط والحصر التى تعمل تحت الجبن فى الشقاف ، وما يستعمله العطارون من القراطيس والورق المقوى والخيوط التى تشد بها القراطيس الموضوع فيها حوائج الطعام من الحبوب والأفاويه وغيرها ، فان هذه الأصناف المذكورة إذا حملت من الأسواق وأخذ ما فيها ألقيت إلى المزابل »(٢) .

أما حجم سوق القاهرة فيفوق العد والحصر ، وحسب القارىء أن سوقاً واحدة من أسواق القاهرة وهى القصبة يقول عنها المقريزى « سمعت غير واحد ممن أدركته من المعمرين يقول إنها تحتوى على إثنى عشر ألفاً حانوت ، كأنهم يعنون ما بين أول الحسينية مما يلى الرملة إلى المشهد النفيسى . ومن اعتبر هذه المسافة اعتباراً جيداً لا يكاد أن ينكر هذا الخبر . وقد أدركت هذه المسافة بأسرها عامرة بالحوانيت ، غاصة بأنواع المآكل والمشارب والأمتعة ، تبهج رؤيتها ، ويعجب الناظر هيئتها ، ويعجز العاد عن إحصاء ما فيها من الأنواع ، فضلاً عن إحصاء ما فيها من

---

(١) Runciman : *op. cit.*, V. 3, p. 360.

(٢) الخطط : جـ ٢ ص ٩٢ و٩٣ .

الأشخاص »[١] . ويشمل سوق القصبة المسافة الحالية الممتدة من جامع الحاكم شمالا إلى جامع ابن طولون ومسجد السيدة نفيسة جنوباً . ويشبهه فى هذا الوصف شارع الموسكى فى وضعه خلال الربع الأول من القرن العشرين على قول ڤيت[١] .

كذا ، اختار سلاطين المماليك القاهرة بدلاً من دمشق عاصمة لدولتهم ، فأصبحت — فى رأى السائح المعاصر — أم البلاد ومحط رحل الحاج والراحل ، ومحشر الأسير الغادر ، ومنزل القصاد والوافدين ، ومجمع الصادر والوارد ، تزخر بالعالم والجاهل ، تموج موج البحر بسكانها ، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وكثرة عمائرها . ينقل إثنا عشر ألف سقاء الماء إليهم على الجمال ، ويقوم ثلاثون ألف مكار بنقلهم على حميرها ، وتصعد بهم ست وثلاثون ألف مركب إلى الصعيد وتنحدر بهم إلى الإسكندرية ودمياط[٣] .

ويشكل نظام الحكم المملوكى — بخيره وشره — الدعامة الثالثة من دعائم بناء دولة البرين والبحرين . والمعروف أن المماليك هبطوا مصر مختارين أو أسارى أو متخطفين فى جماعات يرتفع عددهم حيناً ويهبط حيناً آخر . وتضاعف عددهم من ثمانمائة إلى خمسة وعشرين ألفاً من الفرسان . عدا قوات إقليمية بلغت مائة وسبعة آلاف من المشاة وقوات احتياطية من العرب وصلت إلى ستة وستين ألف رجل[٤] . والمماليك خليط من جنسيات شتى ومن أوطان متباينة ، ومن آباء مجهولين . هبطوا غرباء فى بيئة جديدة حيث تربوا تحت ظروف واحدة وفرص واحدة كشفت عن مواهبهم ثم شكلوا بعدها تشكيلا صيرهم «سادة يدبرون الممالك ، وقادة يجاهدون فى سبيل الله ، وأهل سياسة يبالغون فى إظهار الجميل ، ويردعون من جرأ وتقوى » على قول المقريزى[٥]. يعطون أسيادهم عملهم وقت السلم وسيفهم وقت الحرب . ويرجع فضل استخدامهم على هذا النحو إلى الملك الصالح أيوب حين انفض عنه عشيره وخذله أنصاره ، فاتخذ عامة عسكره من المماليك وارتبطوا

(١) الخطط جـ ٢ ص ٩٥ و١٧٤ وصور ومظالم للمؤلف ص ٩١ .

(٢) Wiet G. : *Histoire de la Nation Egyptienne*, V. 3, p 493.

(٣) ابن بطوطة : الرحلة جـ ١ ص ٢٦ .

(٤) Gibbon : *op. cit.*, V. 3 p. 502.

(٥) الخطط : جـ ١ ص ٢١٤ .

بالوفاء له والتلمذ عليه[١] . وبذا حلت رابطة الأستاذية هذه محل العصبية الأيوبية المفقودة ، واتخذت شكلا عائلياً ، عبر عنه مماليك السيد الواحد بالخشداشية . ولما ورث المماليك الأيوبيين فى حكم مصر والشام غدت رابطة التبعية والولاء للأستاذ ، ورابطة الزمالة « الخشداشية » تكونان نظام الحكم عندهم . وكان قطز أول مملوك خلع ابن أستاذه من الملك وتسلطن عوضه : ولم يقع ذلك قبله من أحدمن الملوك[٢] .

ويذكر المقريزى أن الأمراء اختلفوا حول المناداة بالطفل الناصر محمد سلطاناً عليهم بعد مقتل أخيه الأشرف خليل ، فطلعت أم الناصر على السور وسألت عن غرضهم فقالوا « ما لنا غرض إلا القبض على الشجاعى وإخماد الفتنة ، ولو بقى من بيت أستاذنا (قلاوون) بنت عمياء كنا مماليكها ، ولا سيما وولده الملك الناصر حاضر وفيه الكفاية »[٣] . غير أن المعارضين لسلطنة الناصر محمد نجحوا فى إبعاده ونفيه إلى الكرك ، فتجمع مماليكه الذين اشتراهم لنفسه بسوق الخيل ومعهم راياتهم الصفراء وهم يتصايحون بوالى القاهرة « زودنا لنروح إلى أستاذنا الملك الناصر ونجىء صحبته » . ولسان حال كل منهم يقول « عدو أستاذى عدوى »[٤] . وصعد بعد الناصر محمد إلى عرش السلطنة إثنا عشر نفر من أولاده وأحفاده بفضل تمسك المماليك برابطة الأستاذية .

على أن رابطة الزمالة كانت فى واقع الأمر أقوى الروابط بين السلاطين والأمراء جميعاً . وكانت الطائفة الأقوى من طوائفهم الحزبية تنتخب للسلطنة غالباً أقدم زملائها وأكبرهم سناً وأسخاهم وعداً وعطاء ، وتخلع من أجله ابن السلطان المتوفى على الرغم من الإيمان المغلظة والمواثيق السابقة[٥] . حسبما تشهد عبارة الظاهر بيبرس لزملائه : « وما أنا إلا كأحدكم يكفينى فرس واحد ، وجميع ما عندى من خيل وجمال ومال كله لكم ولمن يجاهد فى سبيل الله »[٦] . ويؤكد لاجين هذا

(١) ابن خلدون : العبر ج ٧ ص ٣٧٢ .
(٢) أبو المحاسن : النجوم ج ٧ ص ٥٦ .
(٣) السلوك : ج ١ قسم ٣ ص ٨٠١ — النجوم الزاهرة : ج ٧ ص ٤٥ .
(٤) السلوك : ج ١ قسم ٢ ص ٥٩٥ — صفحات لم تنشر فى ابن اياس ص ١٩١ .
(٥) زيادة : ملاحظات جديدة ص ٨١ وحاشية ص ٣٣٥ من ج ١ قسم ١ .
(٦) السلوك : ج ١ قسم ٢ ص ٥١٥ .

المعنى لزملائه بعد خلعهم للعادل كتبغا الذى قبض على خشداشة ، عز الدين أيبك الخزندار(١) ، ونص قوله « أنا واحد منكم ، ولا أخير نفسى عنكم ، ولست مولياً عليكم من مماليكى أحداً ، ولا أسمع فيكم كلا ما أبداً ، ولا يصيبكم ما أصابكم من مماليك العادل ، وأنتم خشداشيق (أى أنتم وأنا من تاجر واحد) ومحل إخوتى »(٢) وحلف لهم لاجين على هذا القول فاتفقوا معه ، وحلفوا له ونصبوه سلطاناً عليهم .

ومهما يكن أثر رابطتى الأستاذية والزمالة فى تدعيم سلطة الدولة ، فان محاولة بعض السلاطين الفحول أمثال بيبرس البندقدارى وقلاوون الألفى إقرار مبدأ الوراثة فى العرش لم تؤت أكلها تماماً لرفض الأمراء أن يكون ابن أحدهم الذى لم تحنكه التجارب ولم يشاركهم المحن سلطاناً عليهم ، بل يجب أن تؤل السلطنة إلى أكبرهم سناً وأكثرهم نفراً وأعزهم مهابة وجاهاً وأسخاهم عطاء كى لا يعدو أن يكون سوى واحداً بين قرنائه primus inter parés على قول لنبول(٣) وإذا كانوا قد أقسموا على الولاء لأبناء السلطان المتوفى ، فإنهم يوفون بقسمهم ، وينصبونهم لمدة شهر أو سنة أو سنتين على أكثر تقدير ، حتى يحوكوا مؤامراتهم وينسجوا دسائسهم فيعزلوهم ، ويسجنوهم وينفوهم أو يقتلوهم فى جو ملىء بالظلمة والغموض . وترتب على ذلك أمران : الأول أن بلغ عدد الأطفال الذين تسلطنوا على عرش دولة البرين والبحرين سبعة عشر طفلا ، منهم ستة أطفال تقل أعمارهم عن العاشرة ، وإحدى عشر طفلا عن السادسة عشرة . وامتدت سنوات حكمهم جميعاً إلى ما يقرب من نصف قرن ، توقفت خلالها نبضات الحياة فى البلاد ، وتعرضت أرواح العباد وأموالهم للارهاق والضياع والسلب ، وصارت قاعدة قتل السلاطين أو عزلهم وانتشار القتال فى الشوارع والطرقات الطريقة المفضلة للوصول إلى الحكم(٤) .

وجاء الأمر الثانى مترتباً على الأول ، وهو إشاعة الغموض والذعر وفقدان الأمن والنظام إلى درجة أن يتشبه العبيد والخدم بأسيادهم المماليك ، فينشئوا دولة

---

(١) المختصر فى أخبار البشر : ج ٤ ص ٣٣ .

(٢) ابن أبى الفضائل : ج ٢ ص ٥٩٧ .

(٣) Lane-Pool : *A History of Egypt in the Middle Ages*, p. 325.

(٤) صور ومظالم للمؤلف ص ٦ و ٧ .

لهم كدولة السادة . ويكون لها منهم السلطان والأمير والوزير والحاجب والكاتب وغيرها من الرتب السلطانية . وتفسير ذلك أن العادة جرت بخروج العبيد يومياً فى أعداد غفيرة ، لا شاغل يشغلهم سوى خيول سادتهم ، يرعونها فى المرعى نهاراً وفى الاصطبلات ليلا . وفى ربيع ٨٤٩ هـ (١٤٤٥ م) أقاموا بخيولهم مدة يسيرة فى إمبابة ، يلهون ويعبثون، والأمراء عنهم لاهون ، حتى كان شهر ذى القعدة فأظهروا العصيان ، ونصبوا عبداً من بينهم سلطاناً عليهم ، ورتبوا له أرباب دولة وأرباب وظائف ، وولوا نائب الشام ونائب حلب ، وصار هذا السلطان يحكم فيهم بما شاء ، ونصبوا له تختاً يجاس عليه ، وحوله الوزير والأمير الكبير والدوادار ، ويركب وعلى رأسه صنجق أصفر ، وحوله جماعة من العبيد نحو من خمسمائة فصاروا يفسدون هنا وهناك ، وينهبون ما يمر عليهم من غلال وحمير وإبل وماشية وغير ذلك . فحصل للناس منهم غاية الأذى وعظيم البلاء . وبقى سلطان العبيد يفعل ما أحب وأشتهى ، يصدر الأوامر بالقبض أو الحبس أو القتل أو الغرامة على من يشاء ، والضرب على من يشاء ، ولا يقدر أحد غلى رده حتى علم سلطان البلاد وقتذاك وهو الظاهر جقمق بقيام سلطنة العبيد فى إمبابة واستفحال خطرها ، فعين جريدة من مماليكه السلطانية تمكنت بعد معركة عنيفة من القضاء على دولة العبيد المزعومة ، وأخمد فتنتهم التى لم يسمع بمثلها فى سالف الأعصار على قول شاهد عيان(١) .

وأخيراً ، يأتى دور التشريع والقانون فى تدعيم دولة البرين والبحرين التى صحب قيامها حدوث بعض التغيرات الجذرية اجتماعياً واقتصادياً ، فبعد أن كان الحاكم والمحكوم يكونون وحدة جنسية ودينية ولغوية وثقافية وسياسية قبل تبوء المماليك عرش مصر ، صار الحاكم يكون طبقة اليجاركية متعالية ذات سمات معينة ، ويغذيها بين الفينة والأخرى موجات وهجرات بشرية ، وافدة من الخارج لها نفس السمات والخصائص ، منها على سبيل المثال موجة مغولية تعرف بالاويراتية أوالعويرانية تعدادها نحو عشرة آلاف نسمة ، قدمت بلاد الشام خوفاً من الملك غازان وذلك على عهد السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا — وكان من جنسها — فأنزلهم بالساحل

---

(١) أبو المحاسن : منتخبات من حوادث الدهور : جـ ١ ص ١٩ . وراجع التفاصيل فى صور ومظالم للمؤلف ص ١٣ وما بعدها .

الشامى قريب قاقون[1] . وأحضر كبراءهم إلى الديار المصرية ، ورحب بهم ، وأنعم على مقدمهم طرغاى أو طرغية بإمرة طبلخاناه وعلى ثلمائة من أكابرهم ، بل من اللصوص — على حد تعبير المقريزى — بإمرة عشرة ، وأجرى على البقية الرواتب والإقطاعات وأنزلهم بحى الحسينية حيث تفاعلوا مع المواطنين ، فأثروا فيهم وتأثروا بهم ، ونشروا بينهم من مظاهر الخلاعة والاستخفاف بالآداب العامة ما لم يكن معهوداً من قبل ، سيما وأن بعضهم ظل على وثنيته ولم يكرههم السلطان على اعتناق الإسلام . ولم يعترض على عدم صيامهم شهر رمضان . ويصف المقريزى أثر ذلك السلوك الأجنبى وانطباعاته على المواطنين فيقول « وكانوا على غير الملة الإسلامية ، وتظاهر بعضهم بدين الإسلام ولم يصم البعض الآخر شهر رمضان عند حلوله ، فشكا الناس للسلطان كتبغا ، فأبى أن يكرههم على الإسلام ، ومنع من معارضتهم ، ونهى أن يشوش عليهم أحد ، فشق ذلك على الناس »[2] .

لا بد إذن من وضع تشريع جديد للدولة يتمشى مع هذا التركيب الاجتماعى بشقيه العربى والمملوكى ، يحفظ لأصحاب البلاد قيمهم الاجتماعية ومقدساتهم الدينية وتقاليدهم الموروثة جيلاً بعد جيل ، ويقر للحاكمين الأجانب امتيازاتهم ، ويشبع شهواتهم وغرائزهم البدائية الخشنة ، فضلا عن تنظيم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية بين الحاكم والمحكوم . يقول المؤرخون فى هذا الصدد أن الزعيم المغولى جنكزخان قرر لدولته — بعد أن استقرت فى بلاد المشرق — قواعد وعقوبات دونها فى كتاب على هيئـــة دستور أسماه ياسه Yassa على قول المقريزى أو اليسق على قول أبو المحاسن ، وجعله شريعة لقومه . اتخذ مواد أحكامه من شريعة أهل الاستبس وعرفهم ومن تجاربه الشخصية . وأعطت الياسه جنكزخان وأولاده من بعده السلطة المطلقة والكلمة القاطعة النافذة ، وحددت الياسه أصول القوانين المالية والجنائية والمدنية والتجارية للدولة المغولية[3] .

وسار أهل جنكزخان بعده على هدى من الياسه ، والتزموا بموادها حتى

---

(١) المختصر فى أخبار البشر : ج ٤ ص ٣٣ .

(٢) الخطط : ج ٢ ص ٢٢ و٢٣ . وصور ومظالم ص ٣٧ .

(٣) النجوم الزاهرة : ج ٧ ص ١٨٢ Runciman : *op. cit.*, V. 3, p. 241.

قطع الله دابرهم ، وتفرقوا بين رقيق يباع أو وافدية ، فامتلأت بلاد مصر والشام بطوائف المغل ، وانتشرت عاداتهم بها وطرائقهم ، وامتزج بلحم ملوك مصر ودمهم مهابتهم وتنظيمهم ، كما ربوا بدار الإسلام ، ولقنوا القرآن[1] ، وكان السلطان الظاهر بيبرس أول من سار على قاعدة ملوك التتار وغالب أحكام جنكزخان من أمر الترتيب والمذهب ، فهو الذى ابتدأ فى دولته بأرباب الوظائف من الأمراء والأجناد ، وإن كان بعضها قبله ، فلم تكن على هذه الصيغة أبداً ، ويمثل أبو المحاسن لذلك مثلا فيقاس عليه ، وهو أن الدوادار ومعناه ماسك الدواة كان قديماً لا يباشره إلا متعمم . كذلك كان بيبرس أول سلطان بمصر يعين أربعة قضاة يمثلون مذاهب السنة الأربعة[1] .

ومن ثم غدت السياسة التشريعية فى دولة البرين والبحرين نوعين : سياسة عادلة تخرج الحق من الظالم الفاجر ، فهى من أحكام الشريعة وصنفت فيها كتب ، ويشرف على تطبيقها وتنفيذها طبقة رجال الدين على المذاهب الأربعة . وسياسة ظالمة تحرمها الشريعة وهى من الياساه — أو الياساق — وهى قوانين ضمنها جنكزخان من عقله ، وقررها من ذهنه ، وجعل الناس يتحاكمون إليها وأكثرها مخالف لشريعة الله وكتبه[2] ويشرف على تطبيق الياساة متولى الحجوبية الكبرى والحجاب عامة ، ويفصلون فى قضايا المماليك ، أمراء وعساكر ، وفق ما ورد فى قوانين الياسه . ولكن سرعان ما حدث تطور خطير فى النظام القضائى ، وطغت السياسة الظالمة على السياسة العادلة ، حسبما يشير المقريزى إلى ذلك الطغيان تحت أحداث ٧٥٣ هـ . حيث يقول « وفيها رسم للأمير جرجى الحاجب أن يتحدث فى أمر أرباب الديوان ويفصلهم عن غرمائهم بأحكام السياسة . ولم يكن عادة الحجاب فيما تقدم أن يحكموا فى الأمور الشرعية ، فاستمر ذلك فيما بعد . وكان سبب ذلك وقوف تجار العجم بدار العدل . وذكروا أنهم لم يخرجوا فى بلادهم إلا لما نزل بهم من جور التتار . وأنهم باعوا بضائعهم لعدة من تجار القاهرة ، فأكلوها عليهم ، وأرادوا إثبات إعسارهم على القاضى الحنفى وهم فى سجنه ، وقد فلس بعضهم فرسم لجرجى بإخراج غرماء التجار

---

(١) الخطط ج ٢ ص ٢٢١ .

(٢) النجوم الزاهرة : ج ٧ ص ١٨١ — حتى : ج ٣ ص ٧٩٨ .

(٣) الخطط : ج ٢ ص ٢٢٠ — القلقشندى : ج ٣ ص ٣١٠ .

من السجن وخلاصهم مما فى قبلهم . وأنكر على القاضى الحنفى ما عمله ، ومنع من التحدث فى أمر التجار والمديونين . فأخرج جرجى التجار من السجن ، وأحضر لهم أعوان الوالى وضربهم ، وخلص منهم المال شيئاً بعد شىء .

ومن حينئذ صارت الحجابة بالقاهرة وبلاد الشام تتصدى للحكم بين الناس فيما كان من شأن القضاة الحكم فيه »[١] . الأمر الذى أطمع قضاة السوء فى المناصب ، وصار المناحيس يطلعون إلى مصر ، ويتولون القضاء فى النواحى بالبذل ، وحصل بذلك وهن فى الأحكام الشرعية[٢] .

وكيفما اتصف قضاة المعاملات وقتذاك بالظلم والانحراف ، فان الضرائب ويعبر عنها فى المصطلح المملوكى بالأموال الديوانية كانت على نوعين كذلك . ضرائب عادلة تقرها الشريعة الإسلامية ، وسبق أن مارستها البلاد فى عصر ما قبل المماليك ، وتحصل من سبع موارد أساسية وهى : المال الخراجى ، ورسم المعادن ، والزكاة ، والجزية والجمارك ، ودار سك النقود . وضرائب غير شرعية تقرها الشريعة المغولية الظالمة أى الياسه[٣] . ويقل عددها ويكثر حسبما يعوز السلطان المال أو يضيق به الحال ، ويعبر عنها بالمكوس أو « الحقوق السلطانية والمعاملات المالية »[٤] أبطل منها الناصر محمد عام تولية السلطنة خمسة عشر نوعاً ، كما أبطل معها عقوبة الضرب بالمقارع[٥] .

وما أبدع ما حواه كتاب صبح الأعشى عن التراتيب الإدارية والديوانية لدولة البرين والبحرين ، وهى معقدة فى مجموعها ، لكنها مرتبة ترتيباً دقيقاً من أصغرها بالقاعدة فى الأطراف والنيابات إلى أكبرها بالقمة فى العاصمة . وتدل قوائمها على طول باع المماليك فى الضبط والربط ، وسرعة الحزم والبت فى أمور السياسة والحرب ، مبيناً فيها أرباب السيوف وأرباب الأقلام ، ومنهم أرباب الوظائف الديوانية وأصحاب الوظائف الدينية . ومحكم نظام البريد بأنواعه البرية والجوية

---

(١) السلوك : جـ ٢ قسم ٣ ص ٨٦٢ .
(٢) المختصر فى أخبار البشر : جـ ٤ ص ١٠٤ .
(٣) القلقشندى : جـ ٣ ص ٤٥٢ .
(٤) الخطط : جـ ٣ ص ١٠٥ .
(٥) الخطط : جـ ١ ص ١٠٢ و ١٢٨ وابن إياس جـ ١ ص ١٢٤ .

والضوئية والصوتية الصلة الوثيقة بين عاصمة الدولة وبين نياباتها وأطرافها . إذ المعروف أن سلاطين المماليك أنشأوا طرق البريد ، وأقاموا عليها الخانات ، وزودوها بالخيول والهجين والعمال والماء والزاد[١] . كما أقاموا مطارات الحمام الرسائلى لحمل مكاتبات الدولة ، ويعبر عنها فى المصطلح المملوكى بالهدى ، واتخذوا من قمم الجبال ومن الأبنية العالية فى أقصى الثغور كالبيرة والرحبة مناور لرفع النار ليلا والدخان نهاراً ، وأرصد فى كل واحد منها الديارب والنظارة لرؤية ما وراءهم وإيراء ما أمامهم[٢] . وقد ترقى المناور فى سرعة وصول الأخبار إلى الدرجة القصوى . وذلك أن البريد يأتى من سرعة الخبر بما لم يأت به غيره ، والحمام يأتى من الخبر ما هو أسرع فى البريد ، والمناور تأتى من الخبر بما هو أسرع من الحمام . وناهيك بوصول خبر فى الفرات إلى مصر فى مسافة يوم وليلة على الأكثر[٣] .

ويرجع فضل تدعيم وتطوير أجهزة الأعلام المملوكية على هذا النحو إلى السلطان الظاهر بيبرس ، الذى أراد ترتيب دولته فى دمشق ، حين أزمع العودة إلى القاهرة ، فعين لها شرف الدين محمد بن عبد الوهاب عم ابن فضل الله العمرى كاتباً للانشاء هناك ، وقال له « إن قدرت أن لا تبيتنى كل ليلة إلا على خير ، ولا تصبحنى إلا على خير فافعل »[٤]. وتمكن بيبرس — بفضل نظام البريد — من لعب البولو فى كلتا العاصمتين (القاهرة ودمشق) خلال أسبوع واحد[٥] ، فضلا عن كثرة ترددة وأسفاره إلى الشام المحروس ليراقب عماله وليطمئن بنفسه على الأمن وسلامته ، وكان يعمل له موكب بمصر وموكب بالشام حتى قال القائل فى المعنى : يوماً بمصر ويوماً بالشام ويوماً بالفرات ويوماً فى قرى حلب[٦] . ويضيف ميور « ويوماً فى الحجاز »[٧] .

---

(١) راجع التفاصيل فى نظام البريد فى الدولة الإسلامية للمؤلف ص ١١٧ وما بعدها .

(٢) التعريف ص ١٩٩ .

(٣) القلقشندى : جـ ١٤ ص ٤٠٠ — نظام البريد ص ١٥٢ .

(٤) نظام البريد : ص ١٢٣ .

(٥) حتى : جـ ٣ ص ٧٩٨ :

(٦) ابن اياس : جـ ١ ص ١٠٨ .

(٧) William Muir : *The Mameluke or slave dynasty of Egypt,* London, 1896, p. 138.

وما أروع وصف المقريزى لمشاعر الدماشقة وفرحتهم حين سماعهم بعزم أحد السلاطين على زيارة البلاد الشامية ؛ فيتسابقون فى إقامة الزينات ويتزاحمون على مشاهدة مواكبهم مثال ذلك تصويره لقدوم الناصر محمد بن قلاوون من الحجاز إلى دمشق يوم ١١ محرم ٧١٣ هـ . وكان دخوله إليها يوماً مشهوداً بلغت فيه أجر البيت مبلغاً زائداً ، حتى أن بيتاً أخذت أجرته للنظر إلى السلطان فى مدة من بكرة النهار إلى الظهر ستمائة درهم . وعبر السلطان جموع الدماشقة وزينتهم وهو على ناقة وعليه بشت (العباءة من الصوف بلونه الطبيعى) من ملابس العرب بلثام وبيده حربه(١). ويعنى ذلك كله أن مراكز البريد بدلت الخوف أمنا والوحشه أنسا فى سائر جهات الدولة ، «حتى صارت المرأة تسافر من القاهرة إلى الشام بمفردها راكبة أو ماشية ، لا تحمل زاداً ولا ماء» على قول المقريزى(٢) .

— ٣ —

هذه عمد أربعة (المعركة والعاصمة والنظام والتشريع) أسهمت — فيما يرى الباحث — فى بناء دولة البرين والبحرين ويتبعها سؤال عن نوعية التغييرات الجذرية التى صحبت قيام تلك الدولة ؟ . وأولها فى نظر الباحث زوال سيادة الجنس العربى وخضوعه لسيادة الجنس المملوكى التركى لمدة قرون (١٢٥٠ — ١٩٥٢ م) فقد خلالها العرب ثقتهم فى أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم ، وتفرقوا شيعاً وأحزاباً . ومن ثم لم يكن بين العرب والمماليك منذ قيام دولتهم حتى سقوطها سوى حب مفقود بسبب الكراهية الجنسية لمن مسهم الرق ، وصاروا حكاما على من هم أرفع مكانة وأولى بالحكم والولاية منهم وهم العرب الذين أعلنوا رأيهم بصراحة ، وعارضوا بزعامة أميرهم الكبير نجم الدين على الجعدى سلطنة المعز أيبك ، وامتنعوا عن دفع الخراج لأولئك العبيد الخوارج « نحن أصحاب البلاد أحق بالملك من المماليك ، وقد كفى أنا خدمنا بنى أيوب ، وهم خوارج خرجوا على البلاد »(٣) . وتحايل سلاطين المماليك بمختلف الوسائل على إخماد ثورات العرب وبخاصة عربان الشام « فهم جل

---

(١) السلوك : جـ ٢ قسم ١ ص ١٢٢ .

(٢) شرحه : جـ ١ قسم ١ ص ٢٥٩ — ٢٦٠ .

(٣) شرحه : جـ ١ قسم ٢ ص ٣٨٦ .

القوم وعين الناس ، ولا عناية للملوك إلا بهم ، ولا مبالاة بغيرهم ، ورأس الكل آل فضل وآل مراء وآل على ، وهم من آل فضل الذين كانوا فى نحر العدو . ولهم العديد الأكثر ، ولهم المال الأوفر . وآل على منهم ، نزلوا غوطة دمشق حيث صارت الإمرة إلى عيسى بن مهنا ، وبقى عيسى بن مهنـا جار الفرات فى تلابيب التتار . ولذا يضاعف إكرامهم ، وتوفر لهم الإقطاعات ، وتسنى العطايا . وصاروا الآن أهل بيتين : بيت مهنا بن عيسى ، وبيت فضل بن عيسى(١) . وتوطرت الصداقة بين هذين البيتين وبين الناصر محمد بن قلاوون بخاصة — بعد نفرة عظيمة عدة سنين — حتى عظم العرب فى أيامه لجلبهم الخيل له وبذله فى أثمانها ما لم يسمع بمثله ، فشمل الغنى عامتهم ، وأقطع الناصر محمد أمراء البيتين عدة إقطاعات جليلة ، وخلع عليهم مائة وستين خلعة ، وأحضر أمراءهم إلى مصر لمشـاركته فى سبـاق الخيل(٢) . ويروى عن النـاصر محمد أنه كان يقول « رأيت فى بعض الملاحم أن المغاربة تملك مصر وتبيع أولاد الترك فى سويقة مازن » . فأوجس المماليك خيفة من ذلك القول فى عام ٧٤٨ هـ حين شاع انتقال أبى الحسن المرينى صاحب المغرب من فاس إلى تونس وهى أقرب إلى مصر من فاس بثلاثة أشهر ، ولذا تودد ، السلطان شهاب الدين أحمد بن الناصر لعرب الكرك واتخذ منهم كاتب سره ومستشاريه ، ولبس زى العربان مجاملة للعرب (٣) .

أما عرب مصر فجماعات كثيرة وشعوب وقبائل ، لـكنهم على سعة أموالهم واتساع نطاق جماعاتهم ليسوا عند السلطان فى الذروة ولا السنام ، إذ كانوا أهل حاضرة وزرع ، ليس منهم من ينجد ولايتهم ، ولا يعرق ولايشام ، لايخرجون عن جدر الجدران(٤). تفرقوا فى الوجهين القبلى والبحرى ، فحلت قبائل بنى سعد وبنى وائل وبنى جذام وبنى بقروبنى عطية وبنى النعائم بريف ومدن الشرقية . ونزل بنو هوارة وهم بطن من بنى عمر ببلاد الصعيد . أما عرب غزاله فسكنوا الجيزة ، على حين هبط عرب الجويلى ومرعى بالبحيرة ، وهم أشبه القوم بالتخلق بأخلاق العرب فى الحل

---

(١) التعريف : ص ٧٩ .

(٢) النجوم الزاهرة : جـ ٩ ص ١٦٨ — المختصر : جـ ٤ ص ١١٣ .

(٣) النجوم الزاهرة : جـ ١٠ ص ٦٨ .

(٤) التعريف : ص ٧٦ .

والترحال . يغربون إلى القيروان وقابس ويفدون على الحضرة وفود أمثالهم من أمراء العرب معلنين ولاءهم ، طالبين الإقطاعات الوفيرة والاستقلال المحلي المحدود ووراثة المشيخات .

ومهما يكن من أوجه الخلاف بين عرب البرين الشامي والمصرى ، فان ثوراتهم لم تخمد ضد المماليك ، ولاسيما إذا ما اقترنت بفتن المماليك بعضهم بعضاً . من ذلك على سبيل المثال ماوقع عام ٨١٤ هـ . حين دبر الأميران شيخو ونوروز خلع الملك الناصر فرج من السلطنة المملوكية ، واتفقا على سلطنة الخليفة العباسى المستعين بالله مع احتفاظه بمنصب الخلافة ، على شريطة أن يحكم نوروز البلاد الشامية من غزة إلى الفرات ، ويحكم شيخو الديار المصرية من قطيا بالشرقية إلى أقصى بلاد الصعيد ، وأن لا يكتب الخليفة منشوراً أو مرسوماً قبل عرضه عليهما والحصول على موافقتهما . ولبس الخليفة العباسى شارة الملك ، وباس الأمراء له الأرض على عادتهم . ويعنى هذا الخبر أن الفرصة واتت العرب ليحكموا أنفسهم بأنفسهم كما لو كانوا قبل سقوط بغداد ، وأن يستردوا مجدهم السالف وسيادتهم القومية . غير أن تفرق كلمتهم ، وفقدانهم صفات القيادة من ناحية ، وتفوق المماليك حربياً عليهم من ناحية أخرى أضاع عليهم تلك الفرصة الذهبية . إذ اتضح لشيخو — بعد ستة أشهر إلا أياماً — أن يخلع الخليفة من السلطنة ويجلس مكانه بحجة أن عربان الشرقية والغربية قد خرجوا عن الطاعة ، وكثر الفساد فى البر والبحر ، وأن الوقت محتاج لإقامة سلطان تركى ، له سطوة بقمع أهل الفساد ، وتنصلح الأحوال على يده . وأحضر شيخو القضاه وسائر الأمراء ، وكتب محضراً بذلك ، وخلعوا الخليفة ، وسلطنوا شيخو ، فثبت دعائم الدولة ، وقطع دابر وجدر العصاة من العرب والمماليك على قول ابن إياس(١) . وجرى على الخليفه المستعين بالله ما جرى على أسلافه وأخلافه من حيث الانزواء والاكتفاء باللقب الخليفى « وليس له من أمر ولا نهى ولا نفوذ ، بل يتردد إلى أبواب الأمراء وأعيان الكتاب والقضاة لتهنئتهم بالأعياد والشهور » على قول المقريزى(٢) .

واستفحل خطر العرب على المماليك منذ عام ٨٧٢ هـ حينما انشغل السلاطين

---

(١) بدائع الزهور : جـ ١ ص ٣٥٧ و ٣٥٨ .

(٢) السلوك : جـ ١ قسم ٢ ص ٤٤٢ تحت أحداث سنة ٦٥٩ هـ Lewis : The Arabs in History, p. 105.

بتقلب دولهم ، وتغير فى تلك السنة أربعة سلاطين ، استنجد الترك فيها بالعرب على بعضهم ، فكان من أعز ما يكون على قول مؤرخ معاصر(١) . وكاد الأمر يفلت من يد الترك إلى العرب لولا أن ولى السلطنة رجل لحل قوى الشكيمة هو قايتباى ، الذى نجح فى إخماد ثورات العرب بالصعيد ، وقتل منهم مالا يحصى ، ونوع بهم العذاب تنويعاً ، فقبض على نحو ثلثمائة من عرب غزالة الثائرين ، ووضع الرجال فى زناجير والنساء والصغار فى حبال ، وعلق رءوس من قتل من الرجال فى رقاب النساء ، وسمروهم على جمال ، وشقوا بهم من القاهرة يوم خروج المحمل، ثم علقوهم على أبواب المدينة(٢) . الأمر الذى عمق الكراهية فى نفوس العرب ضد الترك والمماليك ، وعبر عنها السلطان طومان باى الثانى أثناء مقاومته لسليم الفاتح العثمانى بقوله : إن العربان صارت كلها أعداء لنا وعوناً لعدونا ، لأنه ما منهم أحد إلا من قتلنا إما أباه وإما أخاه وإما إبنه وإما ابن عمه وإما واحد من أقاربه . وذلك لما كانوا يعصون علينا . فهم الآن كل واحد منهم يطالبنا بثأره القديم(٣) .

وكان التغيير الثانى الذى صحب قيام دولة البرين والبحرين هو نقل مركز الثقل العالمى للغة العربية وآدابها وفنونها من العراق إلى مصر . إذ لم تعد بغداد عاصمة العالم العربى والإسلامى للنهضة العلمية والأدبية بعد أن خربت الخراب العظيم بقتل هولاكو خان لسبعمائة من القضاة والفقهاء والصوفية ورءوس الأمراء والدولة والأعيان والمدرسون ، وكان منهم محيى الدين بن الجوزى وأولاده(٤) ودام القتل والنهب فى بغداد نحو أربعين يوماً ، ثم نودى بالأمان . وأحرق هولاكو كتب العلماء التى كانت ببغداد من سائر العلوم والفنون التى ما كانت فى الدنيا(٥) . وقيل إن هولاكو ألقى بها بدجلة معاملة — بزعمهم — لما فعله المسلمون بكتب الفرس عند فتح المدائن(٦) ومهما يكن الأمر ، فان سقوط بغداد وتخريبها على يد التتار قد وقع

---

(١) ابن تغر بردى : منتخبات جـ ٣ ص ٦٣٢ .
(٢) ابن إياس : جـ ١ ص ٣٥٧ وجـ ٢ ص ١٨٠ و٢٤٣ .
(٣) شرحه : جـ ١ ص ٣٥٧ .
(٤) المختصر : جـ ٣ ص ١٩٥ — مادة بغداد بدائرة معارف البستانى .
(٥) النجوم الزاهرة : ج ٧ ص ٥١ .
(٦) العبر وديوان المبتدا والخبر : جـ ٥ ص ٥٤٣ .

بعد مضى خمس وخمسون عاماً على سقوط بيزنطة وتخريبها على يد رجال الحملة الصليبية الرابعة ١٢٠٣ م . وأنهى ما كان بين المدينتين الخالدتين من توازن حضارى وثقافى ، ازدهرت فى ظله الحضارة الانسانية فى منطقة الشرق الأوسط لعدة قرون ، ومنذئذ لم تعد له القيادة العلمية والحضارية إلى اليوم(١) .

لكن مواطن علمية كبرى قامت على أنقاض بغداد فى الأقطار الإسلامية الناشئة فيما بعد المحنة ، ومنها على سبيل المثال مدينة مراغة التى عمل بها الخواجة نصير الدين الطوسى الرصد ، ونقل إليه كثيراً من كتب الاوقاف التى كانت ببغداد ، وعمل دار حكمة ودار طب ودار حديث ، ومدرسة لكل فقيه ، ورتب فيها الفلاسفة والأطباء والمدرسين ذوى الرواتب الثابتة(٢) . ولا شك أن غالب من رحل من علماء العراق والشام أيام النكبة والجفلة من التتار قد نال المكانة السامية فى القطر الذى حل فيه(٣) . وبخاصة من سكن منهم الديار المصرية ، ويذكر منهم أبو شامة على سبيل المثال لا الحصر : الجمال يوسف الدبابيسى ، والعماد أبى حامد الحسين المعروف بالحافظ ابن عساكر ، والكمال التفليسى والمحي بن سراقة مغربى ، وكمال الدين أحمد بن القاضى زين الدين ، وأولاد بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل بعيالهم وأموالهم ، ومعهم من أهل البلاد من كان له قدرة على السفر(٤) . فضلا عن جماعة من مماليك الخليفة المستعصم البغاددة ومقدمهم شمس الدين سلار(٥) .

أولئك خرجوا فى قفل كبير بعد قفل إلى مصر حيث « الإيمان والعلم يكونان مع الخلافة أينما كانت » . على قول السيوطى(٥) . وحيث توفر لهم الأمن والرخاء والرعاية من السلاطين والأمراء الذين عنوا باللغة العربية وآدابها وفنونها ، ومنهم السلطان الأشرف خليل الذى اشتهر بعقد المجالس الأدبية ومطارحة الأدباء بذهن

---

(١) Runciman : op. cit., V. 3, p. 304.

(٢) ابن كثير : جـ ١٣ ص ٢١٥ .

(٣) عباس العزاوى : تاريخ العراق بين احتلالين : جـ ١ ص ٢٢٥ .

(٤) ذيل الروضتين : ص ٢٠٩ و٢١٢ و٢٣٠ و٢٣٢ — المختصر : جـ ٣ ص ٢١٦ أحداث سنة ٦٦٠ هـ .

(٥) حسن المحاضرة : جـ ٢ ص ٦٥ .

رائق ، وزكاء مفرط ، فضلا عن معرفته بصناعة الإنشا والتوقيع . فكان لا يعلم على مكتوب حتى يقرأه كله ، ولا بد أن يستدرك على الكتاب فيما يتبين لهم فيه الصواب ، إلا أنه تعاظم فى آخر أيامه ، وصار لا يكتب اسمه على المراسيم والمربعات ، ولا يكتب حرف الخاء (خ) إشارة إلى الحرف الأول من اسمه على قول المقريزى[١] . واشتهر كذلك السلطانان جقمق وخشقدم بفصاحة لسانهما بالعربية ، ولأولهما مسائل عويصة فى الفقه ، ترجم له فيها العلماء . وممن اشتغل من الأمراء بالعربية وعلومها ، وتحدث بها بفصاحة وطلاقة جانى بك المتوفى سنة ٨٦٨ هـ . وخاير بك المتوفى سنة ٨٨٧ هـ ، وجانى بك حبيب العلائى الإينالى المتوفى سنة ٨٩٣ هـ[٢] .

ويروى عن السلطان المملوكى بصفة عامة حرصه الشديد على أن يخاطبه جلساؤه باللغة العربية ، ويؤاخذ من يخاطبه بالتركية مؤاخذة شديدة بدليل ما وقع لابن سالم (٨٧١ — ٨٥٢ هـ) واضع قواعد علم النحو على اللغة التركية يوم أن كلمة السلطان بالعربى فأجابه بالتركى قصداً للتقدم عنده بذلك ، فغضب منه السلطان ، وأمر بضربه فى حضرته ضرباً مبرحاً ، وأهانه إهانة بالغة على قول المراجع[٣] .

ورغم معرفة فئات الجنس المملوكى بالرطانة التركية والمغولية والفارسية وتحدثهم بها فيما بينهم ، فان اللغة العربية كانت لغة البلاد القومية فى المعاهد العلمية والدواوين الحكومية والمراسلات الدولية والمعاملات اليومية . ولذا أنشأت الدولة إدارة — فى ديوان الإنشا — لترجمة الكتب الواردة من بلاد العجم ، وعين لها رئيس وكتبة يجيدون تلك اللغات[٤] .

وكان الأزهر ولا يزال أكثر وأبرز معاهد العلم فى دولة البرين والبحرين للدراسات العالية فى علوم الدين بخاصة والدنيا بعامة . يفد إليه طلاب العلم ومشايخه من مشارق الأرض ومغاربها للتعمق فى دراسة الدين من تلاوة القرآن ودراسته وتلقينه وما يتصل به من فقه وحديث وتفسير ونحو ، ودراسة اللغة العربية وآدابها

---

(١) السلوك : جـ ١ قسم ٣ ص ٧٩٠ .

(٢) ابن أياس : جـ ١ ص ١٢٨ .

(٣) التبر المسبوك : ص ٤٢٥ .

(٤) الدرر الكامنة : ص ١٩٧ .

وفنونها . وتعقد بالأزهر مجالس الوعظ وحلقات الذكر والتدريس العام بحيث يجد الزائر له « من الإنس بالله والارتياح ونزوع النفس ما لا يجد فى غيره » . على قول المقريزى[١] . ويشارك الأزهر فى تلك النهضة العلمية والأدبية الزاهرة المدارس العامة والجوامع والمؤسسات الاجتماعية والثقافية من خوانق وربط وزوايا ، فضلا عن المعاهد الفنية والعسكرية التى أحدثت تغييرات جذرية فى حياة المجتمع بوجه عام . يشهد عليها ما خلفه النويرى والعينى والقلقشندى والعمرى والمقريزى وأبى المحاسن وابن خلدون وابن إياس وابن حجر ، أصحاب المصنفات والموسوعات المتشعبة الأطراف والأهداف ، والحافظة لتراث القومية العربية الحضارى[٢] .

وثالث التغييرات الجذرية التى أجرتها دولة البرين والبحرين كان استبدال اقتصاد البلاد النقدى التجارى بسماته الحركية فى الداخل والخارج بآخر يعتمد داخلياً على اقتصاد إقطاعى قوامه الزراعة . ولم يكن هذا التغيير فجائياً ، بل جاء تدريجياً ، إذ المعروف أن نظم المعاملات التجارية لم تكن موحدة فى دول الشرق الأوسط فى العصور الوسطى ، ففى مصر والشام شاع استعمال الدنانير الذهبية على حين جرى التعامل فى فارس والعراق بالدراهم الفضية . وظل النظام النقدى ثابتاً فى مصر طالما كان الدينار الذهبى هو وحدة النقود وقاعدة التعامل . فلما قل التعامل به تدريجياً منذ أيام الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله ، حين سك الدراهم من الفضة والفلوس من النحاس ، تنبأ خبراء الاقتصاد آنذاك بالآثار التى سوف تترتب على النقد مستقبلا ، وصدق تنبؤهم بحدوث الخلل فى النقد على عهد السلطان العادل كتبغا (١٢٩٦/٩٤ م) حين ضربت الفلوس وصارت المعاملة وزناً لا عداً ، ومن ثم راجت الفلوس ، وصارت من النقد الغالب فى البلد ، فطردت النقود الرديئة الجيدة من التداول[٣] .

على أن بداية الخلل الفعلى للنظام النقدى حدث منذ منتصف القرن الحادى عشر ، حين اتسمت رقعة الدولة السلجوقية وتعذر عليها الهيمنة على أطرافها ، واتضح لوزيرها ملكشاه آل ملك الطوسى الشهير أن قاعدة إعطاء مرتبات للجند على

---

(١) الخطط : ج ٢ ص ٢٧٦ .

(٢) راجع : صور ومظالم للمؤلف ص ٧٦ وما بعدها .

(٣) المقريزى : إغاثة الأمة ، ص ٤٧ و ٧١ .

اختلاف أصنافهم وأجناسهم أرهقت الإدارة المالية بأبهظ المرتبات والتكاليف ، ففكر هذا الوزير فى الاستعاضة عن المرتبات النقدية بالإقطاعات من الأرض لمختلف طبقات الجند حتى صار الإقطاع الحربى هو القاعدة[١] فى الدولتين السلجوقية والنورية ؛ وعنهما نقل السلطان صلاح الدين الأيوبى تلك القاعدة إلى مصر حسبما يروى المقريزى « ومنذ كانت أيام صلاح الدين إلى يومنا هذا فإن أراضى مصر كلها صارت تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده » فتقسم الأرض إلى أربعة وعشرين قيراطاً منها أربعة قراريط للسلطان وعشرة للأمراء وعشرة للأجناد[٢] .

وورث المماليك نظام الاقطاع الحربى عن أسيادهم الأيوبيين وأرسوا قواعده على أسس مقننة بعد أن قاموا بمسح البلاد وحصر زمامها مرتين : الأولى على عهد السلطان حسام الدين لاجين وعرفت بالروك الحسامى نسبة إليه ، والثانية على عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون وعرفت بالروك الناصر الذى قضى بزيادة أنصبة الأمراء والأجناد فصارت أربعة عشر قيراطاً بعد أن كانت أحد عشر فى الروك الحسامى ، وخصصت العشرة قراريط الباقية للسلطان ومماليكه[٣] . ويصور أبو المحاسن هذا التحول التدريجى فى اقتصاد البلاد فى عبارة بليغة نصها « وأنشأ بنو سلجوق بنى أرتق وآق سنقر جد بنى زنكى ، ثم أنشأ بنو زنكى ، أعنى الملك العادل نور الدين محمود الشهيد بنى أيوب سلاطين مصر وغيرها ، ثم أنشأ بنو أيوب المماليك ودولة الترك ، فانظر إلى أمر الدنيا ، وكيف كل طائفة نعمة طائفة ونشؤها إلى يومنا هذا !! »[٤] واشترطت القاعدة الإقطاعية على الأمير المملوكى أن يحتفظ بعدد معين من الجند يتراوح بين الخمسة والمائة حسب رتبته وإقطاعه وأن يخصص ثلثى دخله للانفاق عليهم وأن لا يرث الأبناء الإقطاع ، خشية قيام أرستقراطية إقطاعية ، وأن لا يقيم الأمير فى إقطاعه بل فى القاهرة أو فى عاصمة الإقليم الذى يوجد به إقطاعه ، ما دامت العبرة بالدخل لا بالملكية . لذلك لم يعرف الأمير الشرقى فن إقامة القلاع

---

(١) التاريخ الحربى المصرى على عهد صلاح الدين للمؤلف ص ٣ .

(٢) الخطط ج ١ ص ٨٧ و ١٥٦ .

(٣) راجع السلوك : حاشية ٢٢١ قسم ١ ج ٢ ص ١٤٦ .

(٤) النجوم الزاهرة : ج ٥ ص ٢٧٩ .

والحصون والقصور المحلية المناهضة للسلطة المركزية كما كان حال زميله فى الغرب الأوربى(١) . وتختلف ضريبة الأطيان باختلاف أرض مصر ، فأغلب أرض الوجه البحرى تحصل الضريبة نقداً ، على عكس الوجه القبلى فتحصل عيناً ، ويزيد قدر الضريبة نقداً أو عيناً تبعاً لخصوبة الأرض ومقدار ما تنتجه من غلة وارتفاع النيل وانخفاضه(٢) . وحسبك أن تعرف أن خراج مصر على زمن السلطان الظاهر بيبرس بلغ اثنى عشر مليوناً من الجنيهات وهو أقصى ما جبته مصر منذ ولاية عبد الله ابن سعد بن أبى السرح(٣) .

ومهما قيل عن حسنات نظام الإقطاع الحربى وسيئاته ، فلا جدال أن تياراً إشتراكياً مشهوداً نما وعاش فى كنف هذا النظام على هدى من المبادىء الإنسانية العامة لأحكام الشريعة الإسلامية والعرف الشرقى ، إذ ظلت الملكية الفردية والميراث والأسرة أسساً جوهرية مرعية نظرياً وتطبيقاً ، كما ظلت حقوق الفقراء المساكين واليتامى والعجزة مقررة فى بيت المال تقضى من الزكاة والصدقة . وكانت فرص العمل وتكافؤها متاحة لغالب الناس . تمثل هذا التيار الاشتراكى الأصيل فى المؤسسات الدينية والتعليمية والصحية والمشاريع العمرانية والزراعية التى تقيمها الدولة والأمراء والتى لايتسع المقام لذكرها هنا ومنها على سبيل المثال القرارات الثورية التى يصدرها بعض السلاطين لمواجهة أزمات التموين التى تعرضت لها البلاد وقت الأزمات كأزمة عام ٧٣٦ هـ (١٣٣٥ م) حين ارتفعت أسعار الغلال وتعذر على الناس شراء ما يلزمهم من الخبز لجشع الأمراء والمستغلين ، فأغرق السلطان الناصر محمد الأسواق بالغلال التى استوردها من الخارج على جناح السرعة . ونودى بالقاهرة ومصر « ألا يباع القمح بأكثر من ثلاثين درهما للأردب الواحد ، ومن باع أكثر من ثلاثين نهب حاله » . ورسم الناصر بفتح شونه وبيع ما بها ، واشتد بالضرب المبرح على المخالفين لبيعهم الخبز بأكثر من السعر المحدد(٤) . وكثيراً ما يلجأ السلطان المملوكى إلى مصادرة عقارات وحواصل ومتاجر وأموال كبارالتجار والأمراء والحكام الجشعين

---

(١) Lewis : op. cit., pp. 155-156.

(٢) القلقشندى : جـ ٣ ص ٤٤٨ .

(٣) ابن إياس : ج ٣ ص ٢٦٦ .

(٤) ابن إياس : ج ١ ص ١٩٦ .

والمنحرفين والمتجرين بأقوات الناس وعرضها في الأسواق بالأسعار التي يحددها المحتسب[١] .

ويشير ابن بطوطة إلى تيار اشتراكي آخر حين يتحدث عن الأوقاف الخيرية بدمشق وأوجه نشاطها ، ومنها أوقاف عن العاجزين عن الحج تعطى لمن يحج عن الرجال منهم كفايته ، ومنها أوقاف تجهيز البنات إلى أزواجهن ، وهي اللواتي لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن ، ومنها أوقاف لفكاك الأسارى ، ومنها أوقاف لأبناء السبيل ، يعطون منها ما يأكلون ويلبسون ويتزودون لبلادهم ، ومنها أوقاف على تعديل الطريق ورصفها ، لأن أزقة دمشق لكل واحد منها رصيفان في جنبيه يمر عليهما المترجلون ويمر الركبان بين ذلك ، ومنها أوقاف لسوى ذلك من أفعال الخير[٢] . ويذكر ابن بطوطة أن دير الفاروص بخارج اللاذقية يعتبر أعظم دير بالشام ومصر ، يسكنه الرهبان ، ويقصده النصارى من الآفاق وكل من نزل به من المسلمين ، فالنصارى يضيفونه ، وطعامهم الخبز والجبن والزيتون والخل والكبر »[٣] . وتتمثل عينات الخدمات في الجامع والخانقاه اللذان أنشأهما الأمير المقر السيفي شيخو بالصليبة الطولونية ، وأنشأ بها حمامين وربوعاً ودكاكين . وقرر بالخانكاه شيخاً إسمه أكمل الدين محمد الرومي الحنفي ، وقرر له في كل شهر أربعمائة درهم ، وجعل عنده عشرين فقيهاً . وجعل خطيب الجامع جمال الدين خليل بن عثمان الزولي ، وجعل به درساً للمالكية أيضاً وولى تدريسه نور الدين السخاوي وقرر له ثلثمائة درهم في كل شهر ، ورتب به قراء ومؤذنين وغير ذلك من أرباب الوظائف ، وقرر لهم معاليم بلغت جملتها في الشهر ثلاثة آلاف درهم . وأوقف شيخو على هذا الجامع والخانقاه وأوقافاً كثيرة ، وقرر للصوفية الخبز والطعام في كل يوم والحلوى العجمية في كل شهر وغير ذلك من الجوامع والمرتبات للصوفية . وجعل في الخانقاه تدريساً وقراءة سبع في كل يوم[٤] .

---

(١) راجع : السلوك ج ٢ قسم ٣ ص ٨٨١ — وابن إياس ج ١ ص ١٦٢ .

(٢) الرحلة : ج ١ ص ٨٣ .

(٣) شرحه : ج ١ ص ٦٠ و٦٦ .

(٤) ابن إياس : ج ١ ص ٢٠٣ — السلوك : ج ٢ قسم ٣ ص ٨٦٤ .

— ٤ —

وكيفما كان الأمر ، فظاهرة الغلاء والرخاء ما زالا يتعاقبان فى دولة البرين والبحرين حسب عينات سلاطينها ، فالبحرية منهم « ماكان أحسن تدبيرهم ، وأصوب حدسهم من جودة تربية صغيرهم وتعظيم كبيرهم ، حتى ملكوا البلاد ودانت لهم العباد ، واستجلبوا خواطر الرعية ، فنالوا الرتب السنية »(١) . فقطز كان أحد أولاد أخت السلطان خوارزمشاه ملك خوارزم ، أسر وهو صبى ، وجلب إلى مصر حيث أخذ يتقدم فى جيشها حتى نصب سلطاناً ، وتمكن من التنكيل بالمغل فى عين جالوت . وكان بيبرس من أسرى القفجاق قدمه البنادقة إلى أحد أمراء الصالح أيوب فجعل يتقدم حتى بلغ الإمارة ، ثم قتل قطز وصار بيبرس سلطاناً لمملكة ضخمة ، وكان قلاوون من نفس الأصقاع القفجاقية وزميل قديم لبيبرس . وكان كتبغا زوج بنت هولاكو الذى فتك به الأمراء لما حاول تدعيم ملك مغولى . أما سلاطين البرجية ، فزمانهم بخلاف ذلك كله « فالمقدم مؤخر ، والصغير متنمر ، والقلوب متنافرة ، والشرور متظاهرة »(٢). ويقول المقريزى فى خططه أن قوصون قال لبيشناك عند وفاة قلاوون ، وكانا يتنازعان على السلطة : « أنا ما يجىء منى سلطان لأنى كنت أبيع الطمسا والبرغالى ، والكشاندين ، وأنت اشتريت منى وأهل بلدى يعرفون ذلك . وأنت ما يجىء منك سلطان لأنك كنت تبيع البوزا وأنا اشتريت منك وأهل البلد يعرفون ذلك »(٣) .

هذا هو التفسير التاريخى لسقوط دولة البرين والبحرين على أيدى سلاطين من أقبح وأرزل الناس ، أهملوا نظام التجنيد المملوكى ، وأساءوا فهم الإقطاع الحربى ، فأفقروا العباد وخربوا البلاد حتى صارت الغلال معظمها لأهل الدولة أولى الجاه وأرباب السيوف الذين تزايدت فى اللذات رغباتهم ، فخربت معظم القرى لموت أكثر الفلاحين وتشردهم فى البلاد »(٤) . مما أدى إلى تدهور الاقتصاد وتوالى الأزمات ، فاستحدثوا سياسة الاحتكار فى الزراعة والتجارة لتغطية نفقاتهم المعيشية

(١ ، ٢) النجوم : ج ٨ ص ١٦٦ و٢٢٨ .

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٤٠ — صبحى وحيده ص ٧٦ .

(٤) المقريزى : إغاثة الأمة ص ٣٦ و٤٦ .

وحملاتهم الحربية . يقول المقريزى إن أهل الدولة احتكروا الأقوات ، ومنعوا الناس من الوصول إليها إلا بما أحبوا من الأثمان ، وضرب لذلك مثلا عن احتكار السكر على عهد السلطان برسباى الذى ختم مطابخه وألزم من يدولب طبخ السكر ألا يتعرض أحد منهم لعمله ، ومنعت باعة السكر وباعة الحلوى فى شراء السكر إلا من سكر السلطان، وعمل لذلك ديواناً ، وأقيم له جماعة ليدولبو السكر ، فامتنع كل أحد من بيع السكر إلا للسلطان ومن شراه إلا من سكر السلطان ، فضاق الناس ذرعاً بذلك وتضرر به جماعة عديدة(١) .

وأكمل الوباء والجراد وإغارات البدو وزحف الصحراء وقصر النيل وغيره من العوامل الطبيعية عمليات التخريب الاقتصادى فاضطر السلاطين إلى القروض المالية والسلفيات من تجار الكارمية كى تمكنهم من القيام بمشروعاتهم الحربية والعمرانية على قول أبى المحاسن(٢) . فضلا عن فرض الضرائب غير الشرعية على الرعية . وفى هذا الصدد تقول الرواية التاريخية أن برسباى احتاج إلى المال فجمع قضاة المذاهب الأربعة ليقروه على فرض ضرائب إضافية ، فرد عليه أحدهم رداً بليغاً نصه « كيف نقر أخذ مال المسلمين بينما ترتدى زوج السلطان ، يوم ختان ولدها ، فستاناً تبلغ تكاليفه ثلاثين ألف دينار . وذلك فستان واحد وزوجة واحدة »(٣) .

ما أجرأ هذا القول وما أشبهه بقول الشيخ عز الدين بن عبد السلام للملك المنصور على بن المعز أيبك يوم أن عقد مجلس القضاة بالقلعة عام ٦٥٧ هـ لإقرار أخذ أموال العامة ونفقتها على المعسكر لمواجهة التتار . ونصه « إذا لم يبق فى بيت المال شىء ، وأنفقتم الحوائص الذهب ونحوها من الزينة ، وساويتم العامة فى الملابس سوى آلات الحرب ولم يبق للجندى إلا فرسه التى يركبها ساغ أخذ شىء من أموال الناس فى دفع الأعداء ، إلا أنه إذا دهم العدو وجب على الناس كافة دفعه بأموالهم وأنفسهم »(٤) وسار على نهجهما الحر الشيخ أمين يحى بن الأقصرائى الحنفى شيخ المدرسة الأشرفية برسباى الذى أنكر على السلطان قايتباى فرض زيادات على الناس فى أرزاقهم

---

(١) شرحه : ص ٤٢ .

(٢) النجوم الزاهرة : ج ١٠ ص ٢٧١ .

(٣) Lewis: op. cit., p. 157.

(٤) السلوك : ج ١ قسم ٢ ص ٤١٧ .

ووظائفهم وإقطاعاتهم وفائض أوقافهم لمواجهة فتنة شاه سوار . وكان مجلس الخليفة والقضاة والأمراء قد وافق على رغبة السلطان. أما الشيخ أمين فأجابه بأنه لا يحل للسلطان أن يأخذ مال أحد إلا بطريق شرعى ولو نفذ ما فى بيت المال فلا يأخذ من أحد شيئاً حتى ينفذ ما بأيدى الأمراء والجند من الأموال والمتاع والأقمشة مما لايحتاج إليه فى الحرب . وانفض المجلس على غير رضى السلطان وإقماعه عن الوصول إلى مراده بفضل معارضة الشيخ أمين هذا . وكان المعلوم عند كل أحد أن أرباب الوظائف والقضاة لايميلون إلا حيث مال السلطان والقول ما يقوله السلطان ، فما بقى بعد ذلك إلا الإذعان والوزن لما أشار به الملك على قول مؤرخ معاصر(١) .

هذه أنماط لمواقف عديدة وقفها العامة والخاصة فى وجه الاستبداد والظلم تنذر بسوء عاقبة الظالمين . وبعدها جاءت الضربة المنذرة بقرب فناء دولة البرين والبحرين فى ١٧ مايو سنة ١٤٩٨ يوم أن وصل الملاح البرتغالى فاسكودى جاما إلى أرض الهند عن طريق البحر مطوفاً حول رأس الرجاء الصالح. ثم عاد فاسكو إلى لشبونه فى أغسطس سنة ١٤٩٩ محملا بالهدايا الشرقية النادرة ، ومعلناً اكتشاف طريق جديد من أوروبا إلى الشرق الأقصى ، أرخص وأسرع من طريق البحر المتوسط والمياه المصرية . وفى ١٥٠٦ م (٩١٢ هـ) وصلت طلائع الاستعمار البرتغالى إلى المداخل الجنوبية للبحر الأحمر بقيادة البوكرك ، واحتلت ـ فى غفلة من السلطنة المملوكية المتداعية ـ سقطرى ، ودارت حول عدن ، وساحلت الشاطىء العربى الجنوبى حتى هرمز ، وألزمت ملكها بدفع الجزية(٢) . ومنذئذ « تزايد الضرر من الفرنج ببحر الحجاز حتى بلغوا فوق عشرين مركباً ، وصاروا يعبثون على مراكب تجار الهند ، ويقطعون عليهم الطريق فى الأماكن المخيفة ، ويأخذون ما معهم من البضائع حتى عز وجود الشاشات والأرز من مصر وغيرها . فكان ذلك من أكبر أسباب الفساد » . على قول ابن إياس(٣) .

وواصل البرتغاليون زحفهم جنوباً مع ساحل ملبار ، واحتلوا جوا ، وهاجموا

---

(١) أبى المحاسن : منتخبات ج ٣ ص ٥١٦ و٦٣٦ .

(٢) پانيكار : آسيا والسيطرة الغربية ص ٤٤ .

(٣) بدائع الزهور لابن أياس ، بقلم زيادة : تراث الإنسانية ص ٢٦٢ .

قاليقوط مركز العرب لتجارة التوابل وأنزلوا الهزيمة بالأسطول المصرى الهندى المشترك فى معركة ديو البحرية ١٥٠٩ م . وبعدها بعامين (١٥١١ م) وصل البوكرك أمام ملقا وخطب فى رجاله مؤكداً « تلك الخدمة الجليلة التى سنقدمها لله بطردنا العرب من هذه البلاد ، وبإطفائنا شعلة محمد بحيث لا يندلع لها هنا بعد ذلك لهيب ... وإنى على يقين أننا إذا انتزعنا تجارة ملقا هذه من أيدى المسلمين لأصبحت كل من القاهرة ومكة أثراً بعد عين »[1] .

تلك كانت نهاية القومية العربية والإسلامية فى بحر الهند والشرق الأقصى ، ولم يمض أكثر من خمسة أعوام على هذا القول حتى اجتاحت جحافل الاستعمار التركى العثمانى أطراف الشام الشمالية ، وبلغت مدينة حلب ، على أن أحداث هذا العدوان لم تجىء مفاجئة لعام ١٥١٦ م . بل إنها وقعت بعد سلسلة طويلة من العلاقات الودية المتبادلة بين السلطنتين العثمانية والمملوكية ظلت حتى ١٤٦١ م . وبعدها تحولت إلى معاداة ومباغضة ، لم تلبث أن تطورت إلى حرب سافرة فى عام ١٤٨٣ م على عهد بايزيد العثمانى وقايتباى المملوكى ، واستمرت ثمانية أعوام حسوماً طويلة أعقبها سلام امتد من ١٤٩١ إلى ١٥١٥ م على قول زيادة[2] . وذلك حين صح عزم سليم العثمانى على الاعتداء ، وبعد أن مهدت له الطريق جاسوسية ناشطة غادرة مكنته من النصر السريع الحاسم يوم واقعه مرج دابق فى أغسطس سنة ١٥١٦ . وانهارت فيها قوة المماليك وتفرق الجند شذر مذر تحت نيران العثمانيين على قول ابن إياس[3] .

وقاد الخائنـان خايربك وجان بردى الغزالى سليم العثمانى إلى جنوب الشـام ، ودلاه على مواقع الدفاع المصرية والشامية ، وأطمعاه فى مواصلة الزحف إلى الديار المصرية حيث قضت معركة الريدانية يناير سنة ١٥١٧ على السيادة المصرية والقومية العربية ، وحولت البلاد إلى ولاية عثمانية ، ودعى الخطباء للسلطان سليم على منابرها ولقبوه « ملك البرين والبحرين ، وكاسر الجيشين وسلطان العراقين وخادم الحرمين

---

(١) بانيكار ص ٤٨ .

(٢) نهاية سلاطين المماليك ص ١٩٨ وما بعدها .

(٣) بدائع الزهور : ج ٣ ص٦٨ .

الشريفين »[1] كرمز السيطرة على مملكة البرين والبحرين وعلى العالم الإسلامى[2] وكان الأجدر بهم أن يلقبوه ملك البرر « الثلاثة والبحار الثلاثة » أى البر الأفريقى والبر الآسيوى والبر الأوربى ، والبحر المتوسط والبحر الأحمر والبحر الأسود . وبذا انتقل مركزالثقل السياسى والحضارى فى مثلث البحر المتوسط من القاهرة إلى استامبول أو من زاوية الشرق والجنوب إلى زاوية الشرق والشمال ، وهما الزاويتان اللتان تبادلتا السيادة فى هذا البحر طوال عصوره التاريخية .

— ٥ —

هكذا طوى تاريخ دولة البرين والبحرين كطى السجل للكتب ، وعلقت صورها فى متاحف التاريخ ، على حين عاشت حيه مضيئة فى عقول وأفئدة أبنائها جيلا بعد جيل ، وقامت محاولات عدة لإحيائها ، أولها ما حدث فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر حين تحولت حركة على بك الكبير (١٧٢٨/١٧٨٤ م) من منافسة عادية على مشيخة البلد عام ١٧٥٥ م بينه وبين خشداً شيئه أمراء الجراكسة المعروفين عند الجبرتى بالأمراء المصريين أو البكوات إلى حرب انفصالية فيما يرجح ، شنها شيخ البلد على بك الكبير المنتصر على السلطان العثمانى وقتذاك عبدالحميد الأول ، واتجه أثناءها اتجاهاً عربياً قومياً لا عهد لمصر بل وللبلاد العربية به منذ زوال السلطنة المصرية الشامية المملوكية ١٥١٧ م . فعلى بك انتهز فرصة إنشغال تركيا بحربها مع روسيا (٦٨ — ١٧٧٤ م .) وأدرك ما تعانيه الشعوب العربية من بؤس وشقاء واستعباد فى ظل السيادة التركية فأخذ يفكر فى التعبير عن رغبة تلك الشعوب فى التحرر ، وذلك يحقق فى الوقت نفسه أطماعه ومشروعاته التوسعية . فاستولى على الحجاز ١٧٦٩ م ومنحه شريفها لقب « سلطان مصر وخاقان البحرين » . وجعل بتلك الخطوة الجريئة البحر الأحمر بحيرة مصرية عادت إليها تجارة الشرق وسواحل الهند . وأرسل فى عام ١٧٧١ حملة مصرية بقيادة أبى الذهب إلى سوريا — وهو اتجاه طبيعى تسلكه مصر فى عصر الصحوة — لتحقيق وحدة مصر وسوريا

(١) ابن إياس : ج ٣ ص ٩٨ .

(٢) راجع الألقاب الإسلامية للدكتور حسن باشا ، طبعة ١٩٥٧ ص ١١٣ و ١٧٤ وص ٣٣٤ و ٣٣٧ .

وكذلك انظر Dehérain : L'Egypte turque, p. 103.

ومصالحهما المشتركة . وكانت هذه المرة الأولى التى يخرج فيها جيش مصرى إلى هذا الاتجاه الأسيوى منذ ١٥١٦ م . وسرعان ما تجاوب المصريون والشاميون إلى حركة الوحدة . وانضم الشيخ الثائر ظاهر العمر صاحب عكا إلى الوحدويين ، وتلاقت أهدافه مع أهداف على بك ، ودخلت جيوشهما معاً دمشق ونشرت الأمن والسلامة فى ربوعها ، وغدا على بك فى يونيه ١٧٧١ م . فى مركز يسمح له أن يعلن نفسه سلطاناً على مصر وسوريا ويحيى دولة البرين والبحرين بمفهومها القديم كما كان أسلافه على قول قنصل فرنسا فى صيد ، وقتذاك(١) .

وأزعجت هذه الحركة الوحدوية الخطيرة الباب العالى فلجأ إلى أساليب السياسة العثمانية واستمال إليه أحد أتباع على بك المقربين ، وهو محمد أبى الذهب الذى خان العهد وأعلن العصيان وانضم بقواته إلى قوات الاحتلال العثمانية وحارب على بك وظاهر العمر وهزمهما ، ومات على بك متأثراً بجراحه فى القاهرة فى مايو ١٧٧٣ م(٢) وبذا فشلت حركة على بك وقيل فى تعليل فشلها تأخر وصول المساعدة الروسية إلى دمياط وكانت روسيا قد وعدت بتأييده ومساعدته بقوات بحرية وبرية .

وكانت المحاولة الثانية لإحياء دولة البرين والبحرين فى النصف الأول من القرن التاسع عشر حين تحولت المنافسة بين واليين عثمانيين هما محمد على والى مصر وعبد الله باشا الجزار والى عكا إلى حرب انفصالية (٣١ — ١٨٤٠ م) شنها محمد على على السلطان نفسه ، وألبسها ثوب القرن التاسع عشر مدعياً أن حدود مصر الطبيعية من جهة الشرق يجب أن تكون جبال طوروس .

ومن الراجح التى تؤيده الحوادث أن مشروع محمد على كان « يتناول إنشاء دولة عربية مستقلة فى مصر تضم إليها البلاد العربية فى أفريقية وآسيا . ففى أفريقية قد استقل بمصر وفتح السودان . وفى آسيا قد فتح معظم جزيرة العرب وبسط عليها نفوذ الحكومة المصرية ، وبطموحه إلى سوريا أراد أن يؤسس الدولة المصرية

---

(١) راجع : رفعت رمضان ، على بك الكبير ص ١٩٩ وأيضاً : Deherain : op. cit., p. 130.

(٢) حسن عثمان : المجمل فى التاريخ المصرى ـ ٢٨٢ .

الـكبرى » . على قول المرحوم الرافعى[1] ، أى أن محمد على قدر حاجات مصر الدولة الناشئة على أساس من التاريخ ووحدة اللغة وتبادل المنافع الاقتصادية ، واعتمد فى تحقيق مشروعه هذا — الذى يحقق فى الوقت نفسه أطماعه ومغامراته — على الدعاية للقومية العربية وادعاء كراهيته للتركية بدليل قول ولده إبراهيم باشا لأحد بارونات فرنسا « أن أباه يحكم مصر والسودان وسوريا ، ومن الواجب أن يضم العراق إلى حكمه ، وأن جزيرة العرب تابعة لأبيه الذى يعمل الآن على إتمام فتحها ، وهو فى صلاته مع أهل البلاد يستخدم اللغة العربية ويعد نفسه عربياً ، ولذلك لا ينفك يطعن فى الأتراك » . فسأله البارون كيف يطعن فى الأتراك وهو منهم فأجابه إبراهيم باشا على الفور « أنا لست تركياً فإنى جئت مصر صبياً ، ومنذ ذلك الحين قد مصرتنى شمسها وغيرت من دمى وجعلته دماً عربياً »[2] .

ولا غرابة فى هذا القول فقد سبق إبراهيم فيه سلاطين المماليك الذين وفدوا صبياناً ، وتمصروا وتعربوا وأسلموا وعبروا عن شعورهم نحو القومية العربية الإسلامية قولا وعملا ، وقطفوا ما قطفه إبراهيم من ثمار « فاحتل إبراهيم وقتاً ما موقعاً على الفرات ومد سلطان أبيه نحو الخليج الفارسى ومدخل البحر الأحمر ، وخضعت له الحسا والقطيف من ناحية ، وانتصرت قواته على عسير ، واحتل لفترة قصيرة عدن من ناحية أخرى » . وزاد محمد على فبادل شاه فارس شعائر الود . ولـكن السياسة الإنجليزية نجحت فى وقف الاتساع المصرى فى مناطق كانت تعدها من مناطق نفوذها . لذلك تمسكت انجلترا بسياستها فى المحافظة على سلامة الدولة العثمانية ورد القوة المصرية إلى داخل مصر نفسها ، فتزعمت فى لندن مجمع الدول ، وأعلنت معاهدة لندن فى يوليو سنة ١٨٤٠ ، وظلت تسوية لندن فى أساسها قائمة حتى انتهت فعلا بإعلان الحماية البريطانية على مصر فى ١٩١٤ وقانوناً يتنازل تركيا عن سيادتها على مصر فى مؤتمر لوزان سنة ١٩٢٣[3] .

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية ، عصر محمد على ج ٣ ص ٢٣١ .

(٢) الرافعى : عصر محمد على ج ٣ ص ٢٣٣ .

(٣) أحمد عزت عبد الـكريم : المجمل فى التاريخ المصرى ص ٣٣٧ .

وتوجت محاولات إحياء دولة البرين والبحرين بنزول المعجزة الكبرى وانفجار ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ الشعبية فى قلب القاهرة رائدة الأمة العربية والعالم الإسلامى نتيجة الوعى القومى العربى وتغلغله فى نفوس الجماعات ، وأدرك رائد الثورة المصرية منذ البداية « أن الدائرة العربية منا ونحن منهـا ، امتزج تاريخها بتاريخنا ، وارتبطت مصالحنا بمصالحها حقيقة وفعلا وليس مجرد كلام »(١) . وتصرف إيجابياً بكل ما تملك الثورة من مقومات ، فعقد ميثاقاً عسكرياً للدفاع المشترك بين مصر وسوريا فى ٢٠ اكتوبر سنة ١٩٥٥ نزلت بمقتضاه قوات مصرية حربية فى سوريا فى اكتوبر سنة ١٩٥٧ لتكون سنداً لها ضد المؤامرات الداخلية والحشود البرية ، التركية وحركات الأسطول الأمريكى السادس على شواطئها ، واستقبلت سوريا حكومة وشعباً هذه القوات بالترحاب والابتهاج ، لأنها لم ترها منذ محاولة محمد على .

وفى أول فبراير سنة ١٩٥٨ أعلن رئيسا جمهوريتى مصر وسوريا توحيـدهما فى دولة واحدة اسمها « الجمهورية العربية المتحدة » ، بديلا عن التسمية السياسية القديمة « دولة البرين والبحرين » تمشياً مع القاعدة الدولية التى تسير عليها الدول العريقة والتى تعرف الأسماء السياسية ، فروسيا اسمها السياسى الجديد بعد ثورة اكتوبر سنة ١٩١٧ هو « اتحاد الجمهوريات السوفيتية » وأمريكا اسمها الرسمى « الولايات المتحدة » وانجلترا تغير اسمها من بريطانيا العظمى إلى المملـكة المتحدة بعد أن ضمت إليها اسكتلندا وإيرلندا فى بداية القرن الثامن عشر الميلادى . يقول عبد الناصر فى خطبة له « هذه الجمهورية العربية المتحدة ستكون سنداً للعرب وقوة للعرب جميعاً ، ستعادى من يعاديها ، وتسالم من يسالمها ، وتتبع سياسة تنبع من نفسها ومن ضميرها »(٢) . ووقعت اليمن فى ٨ مارس سنة ١٩٥٨ إتفاقاً مع الجمهورية العربية المتحدة يتضمن إقامه اتحاد فيدرالى بين البلدين .

لـكن الاستعمار والصهيونية العالمية والرجعية العربية دبرت بليل فى دمشق

---

(١) جمال عبد الناصر : فلسفة الثورة .

(٢) الرافعى ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ص ٣٥٦ ؛ أحمد سويلم العمرى ، دراسات فى المجتمع العربى ، ص ٦٥٠ طبعة ١٩٦١ .

يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٦١ الانفصال وكان الرد على جريمة الانفصال حاسماً سريعاً فى ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ — حين اندلعت الثورة اليمنية وقوضت عرش الرجعية المتوكلية فى اليمن. ومنذ ذلك التاريخ والقاهرة تقود زحفها المقدس على طريق الوحـدة والحرية والاشتراكية ، وتقوم بدور تفاعل وتجاوب يكون من شأنه تفجير الطاقة الـكامنة فى كل اتجاه من الاتجاهات المحيطة بنا على قول عبد الناصر فى فلسفة الثورة ، وفقه الله وأيده بنصر من عنده .